الشّيخ

عزُّ الدِّين بن عبد السّلام

سلطان العلماء وبائع الأمراء



تأليفُ

د. عليّ محمّد محمّد الصّلّابي

سلسلة فقهاء النهوض

الشيخ عز الدين بن عبد السلام

(سلطان العلماء وبائع الأمراء)

د. علي محمد محمد الصَّلاَّبي

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *﴾

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله تعالى؛ أهدي هذا الكتاب، سائلاً المولى عزَّ وجلَّ بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم. قال تعالى:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]

د. علي محمَّد محمَّد الصَّلابي

المقدِّمة

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضلَّ له، ومن يُضلل؛ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71]

أما بعد:

ياربِّ لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا. هذا الكتاب: «الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء، وبائع الأمراء»، جزءٌ من موسوعتي عن الحروب الصليبية، وبالتحديد من الحملات الصليبية: الرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، ورأيت نشره على انفراد؛ لتعم الفائدة. وقد أدخلت الشيخ عز الدين بن عبد السلام في سلسلة فقهاء النهوض؛ حيث توفرت فيه الصفات المطلوبة لهذا النوع من الفقهاء النادرين؛ لأنه تصدى لقيادة الأمة في فترات حرجة من تاريخها، بل كان من الأسباب الرئيسية في انتصار المسلمين في عهد المماليك على المغول ـ كما سترى في هذا الكتاب ـ ولقد أثبت هذا العالم الجليل مجموعةً من الأمور؛ التي تدل على كونه من فقهاء النهوض، والتي منها:

كونه عارفاً بشرع الله، متفقهاً في دينه وعاملاً على هدىً، وبصيرة، وهو ممَّن وهبهم الله الحكمة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]

وهو من الذين جعل الله عماد الناس عليهم في الفقه، والعلم، وأمور الدنيا، والدين.

وهو من أئمة الدين الذين نالوا هذه المنزلة العظيمة بالاجتهاد، والصبر، واليقين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24].

. وهو من الفرقة التي نفرت من هذه الأمة لتتفقه في دين الله، ثم قامت بواجب الدَّعوة ومهمَّة الإنذار ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

. وقد شهد له علماء عصره بالفقه، والعلم، وأذنوا له بالتصدي للإفتاء، والتدريس.

وهو ممَّن شافه العلماء، وزاحمهم بالرُّكب في الحلق، واطلع على مجمل الأحكام الشرعية، فهو لم يقرأ نتفاً، بل درس العلوم الشرعية دراسةً شاملةً عامَّةً، فمرَّ على مسائل العلم، واستطاع تخريجها على أصولها، وأصبحت لديه ملكة فهم النصوص، وعرف مقاصد الشريعة، وأهدافها العامة، فعلمه لم يأته من قراءة ليلةٍ، بل من سَهَر الليالي، ومعاناة الأيام، وديمومة طلب العلم، وتعلمه من المحبرة إلى المقبرة.

لقد عاصر الشيخ عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، ونهاية الدولة الأيوبية، وقيام دولة المماليك، فترك لنا اثاراً كبيرةً في الشأن العام، والسياسة الشرعية، وفقه المصالح والمفاسد، والتصدِّي للغزاة. لقد تحدَّثتُ في هذا الكتاب عن سيرته، ونشأته، وشيوخه في طلب العلم، وتلاميذه، ومؤلفاته، وسمات التأليف عنده، وأعماله في التدريس، والإفتاء، والقضاء، والورع، والتقوى، والبلاغة، والفصاحة، وأهم محاور التجديد عنده، كسعيه لتقنين أصول الفقه، ومجالات التربية، والأدب، والتصوف، وإبداعاته الجميلة فيها، وجهاده، ثم وفاته، وثناء العلماء عليه قديماً، وحديثاً.

إنَّ العزَّ بن عبد السلام مدرسةٌ شامخة في فهم مقاصد الشريعة، وفقه المصالح والمفاسد، وفكِّ الاشتباك بين السياسة الشرعية، والعقائد، فقد ساهم في نهضة الأمة فقهياً، وفكرياً، وجهادياً، وسياسياً، وأخلاقياً، فاستحقَّ أن نسجله بماء الذهب على صفحات الزَّمن في سلسلة فقهاء النهوض.

هذا؛ وقد انتهيتُ من مقدمة هذا الكتاب يوم الأحد الساعة العاشرة والربع صباحاً 1429/5/13هـ 2008/5/18م بالدوحة. والفضل لله من قبل، ومن بعد! وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا أن يجعل عملي لوجهه خالصاً، ولعباده نافعاً، ويشرح صدور العباد للانتفاع به، ويبارك فيه بمنه، وكرمه، وجوده، وأن يثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب كلَّ من ساهم على إتمام هذا الجهد المتواضع ونشره! ونرجو من كلِّ مسلمٍ يصله هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه، ومغفرته، ورحمته، ورضوانه من الدعاء!

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19].

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 180-182]

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك! واخر دعونا: أن الحمد لله ربِّ العالمين

الأخوة الكرام! يسرني أن تصل ملاحظاتكم، وانطباعاتكم حول هذا الكتاب، وغيره من كتبي من خلال دور النشر، وأطلب من إخواني الدعاء لي في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين، والصواب للوصول للحقائق، ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ الأمة، والمساهمة في النهوض لها.

* * *

الشيخ عز الدين بن عبد السلام

من مشاهير عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب

أولاً: اسمه ونسبه:

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي المغربي أصلاً، الدمشقي مولداً، ثم المصري داراً، ووفاة، والشافعي مذهباً[1]، يكنى بأبي محمد، ولقب بعدة ألقاب: بعز الدين، وشاع بين الناس، الإمام العز، ولقب بسلطان العلماء، لقبه به تلميذه ابن دقيق العيد، كما لقب بشيخ الإسلام[2]، واتفق أنه ولد في دمشق، واختلف في تحديد سنة ولادته، فقيل: بدمشق سنة 577هـ.

ثانياً: نشأته:

كان العز بن عبد السلام يعيش في أسرةٍ فقيرة مغمورة، لم يكن لها مجد، أو سلطان، أو منصب، أو علم، فقد ولد العز بن عبد السلام في دمشق الشام، وهي وقتئذ مركز هام للعلم، والمعرفة، وقبلة العلماء والفقهاء، وخطُّ مواجهةٍ أمامي مع الصليبيين الغزاة؛ الذين احتلوا مدناً، وحصوناً عديدة في فلسطين، وساحل بلاد الشام، كما كانت دمشق ممتلئة بنعم الله، وخيراته الوفيرة من ماءٍ عذب، وزراعة، وصناعة، وتجارة درَّت عليها الرزق الواسع، والخير الوفير. في هذه المدينة العريقة ولد العز بن عبد السلام، ونشأ في ربوعها، وتنسَّم هواءها، وترعرع في أجوائها، وقد انشغلت أسرته بطلب الرزق عن طلب العلم، إلا أنَّ العز كان منذ نشأته الأولى عفيفاً، شريفاً، يملك نفساً أبيَّةً؛ إذ لم يُعرف عنه: أنه امتهن مهنةً تزري بصاحبها، أو تحطُّ من شأنه.

وكان رحمه الله شاباً متديناً، متعبداً رغم فقره وكده على رزقه، ولا أدلّ على ذلك من مبيته في المسجد اللّيالي الطوال [3]، ينتظر الصلاة كي لا تفوته الجماعة، أو يغيب عن الصلاة، والعبادة فيه. وقد ذكر السبكي (ت 771هـ) قوة إيمان هذا الشاب، وشدَّة فقره، وتدينه؛ حيث قال: سمعت الشيخ الإمام

[1]. مقاصد الشريعة عند الإمام العزّ بن عبد السَّلام ص41.

[2]. العز بن عبد السلام، محمد الزحيلي ص39.

[3]. النجوم الزاهرة (209/7) ومراة الجنان (158/4).

يقول: كان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيراً جداً، ولم يشتغل إلا على كبر، وسبب ذلك: أنه كان يبيت في الكلاسة [1]من جامع دمشق، فبات بها ليلةً ذات بردٍ شديد فاحتلم، فقام مسرعاً، ونزل في بركة الكلاسة[2] من جامع دمشق، فحصل له ألمٌ شديد، وعامٌّ، فنام، فاحتلم ثانياً، فعاد إلى البركة لأن أبواب الجامع مغلقةٌ، وهو لا يمكنه الخروج، فطلع، فأغمي عليه من شدَّة البرد... ثم سمع النداء.

في المرة الأخيرة، يا بن عبد السلام: أتريد العلم، أم العمل؟ فقال الشيخ عز الدين: العلم؛ لأنه يهدي إلى العمل، فأصبح، وأخذ التنبيه، فحفظه في مدَّةٍ يسيرة، وأقبل على العلم، فكان أعلم أهل زمانه، ومن أعبد خلق الله [3]. في هذه الرواية دلالة واضحة على تديُّن العزِّ، وقوة إيمانه، ونشأته الصالحة التقية؛ حيث لا يحتمل مثل هذه المشاقِّ إلا من عرف ربه، وسلك منهج الحق، وتعلق قلبه بالمساجد لا يخرج منها إلا ليعود إليها، فكان مثال الشاب الذي نشأ في طاعة الله، عازفاً عن طيش الشباب، وهوى النفس، فالشاب الذي يتحرَّج من الاستسلام إلى دفء الفراش جُنُباً في ليلةٍ شديدة البرد لا شك أنّه يعرف قيمة عمله، ويتحلَّى بوعيٍ دينيّ كبير، وحسٍّ إيمانيٍّ عميق، يجعله يبادر إلى التطهُّر عقب اكتشاف الأثر دون تباطؤ، أو كسل [4].

ثالثاً: مثابرته في طلب العلم:

انقطع سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام للعلم، والتعلم بعدما ناهز الاحتلام، كما تدل على ذلك حادثة مبيته في الكلاسة من جامع دمشق، وشمَّر عن ساعد الجدِّ، وشحذ الهمَّة، فحفظ المتون، ودرس الكتب، وتردَّد على كبار الشيوخ في عصره؛ ليعوض ما فاته في صغره، كما أنَّ كبر سنه، وذكاءه أعاناه على التفوق في تحصيل العلم، وإدراك مسائله الغامضة، وتحليل رموزه. والذي ساعده أيضاً على الاستزادة من العلم، والمعرفة الجوُّ العلميُّ الذي كانت تعيشه بلاد المشرق بصفةٍ عامة، ومدينة دمشق بصفةٍ خاصة، حيث كانت موطناً لعدد كبير من فحول العلماء ومشاهيرهم، فنهل منهم العلم والمعرفة، وتحلَّى بمكارم أخلاقهم، واقتدى بحسن سلوكهم؛ حتى أصبح .كما قال السبكي، رحمه الله .: أعلم أهل

---

[1]. الكلاسة: زاوية في الجانب الشمالي من جامع دمشق.

[2]. فتاوى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ص66.

[3]. طبقات الشافعية.

[4]. المصدر نفسه.

زمانه، ومن أعبد خلق الله تعالى [1]

قال الداوودي (ت 945هـ): كان العزُّ بن عبد السلام يقول: ما احتجت في علمٍ من العلوم إلى أن أكمله على الشيخ الذي أقرأ عليه، وما توسطته على شيخ من المشايخ الذين كنت أقرأ عليهم إلا وقال لي الشيخ: قد استغنيت عني، فاشتغل مع نفسك، ولم أقنع بذلك، بل لا أبرح حتى أكمل الكتاب الذي أقرؤه في ذلك العلم[2]. وكان يقول: مضت لي ثلاثون سنة لا أنام حتى أُمِرَّ أبواب الأحكام على خاطري[3]. وقد تلقى العز ـ رحمه الله ـ علوم الحديث، والفقه، والأصول، والتفسير، والتصوف، واللغة على أكابر وجهابذة علماء دمشق؛ التي كانت قبلة طلاب العلم، وموطن العلماء الأفذاذ البارعين في شتى العلوم والفنون، فتردَّد عليهم الشيخ عز الدين، فنهل من علمهم الصافي الفياض، فانصقلت مواهبُه، وتميَّزت شخصيتُه، وتأثر بهم، وسار على منهجهم في الورع، والزهد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[4].

وقال ابن كثير: وسمع كثيراً، واشتغل على فخر الدين ابن عساكر، وغيره، وبرع في المذهب، وجمع علوماً كثيرة، وأفاد الطلبة، ودرَّس بعدَّة مدارس بدمشق، وولي خطابتها، ثم سافر إلى مصر، ودرَّس، وحكم، وانتهت إليه رياسة الشافعية، وقُصد بالفتوى من الافاق[5].

رابعاً: شيوخ العزِّ رحمه الله:

1. فخر الدين ابن عساكر:

هو أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله الدمشقي، الملقب فخر الدين، المعروف بابن عساكر، شيخ الشافعية بالشام، وفقيه زمانه، وكان محدثاً صالحاً، زاهداً، كثير التهجد، حسن الخَلق والخُلق، كثير الأدب والذكر، منقطعاً للعلم والعبادة، وجمع بين العلم والعمل، وهو من أسرةٍ اشتهرت بالعلم، والفضل، والحفظ. وكان قوياً في الحقّ لا يهاب سطوة ظالم، ولا يسكت على منكرٍ، أو مخالفةٍ

---

[1]. طبقات الشافعية الكبرى (83/5) وفتاوى العز ص69.

[2]. طبقات المفسرين للداوودي (313/1) وفتاوى العز ص69.

[3]. رفع الإصر عن قضاة مصر ص 70 وفتاوى العز ص70.

[4]. فتاوى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ص70.

[5]. البداية والنهاية (441/17).

للشرع، وتوفي سنة 620هـ. وطُلب للقضاء فامتنع، وعُرضت عليه مناصب ولايات دينيةٍ، فأباها، وأنكر على الملك المعظم بيع الخمور بدمشق، فمنعه من التدريس في أهم المدارس، وهو ابن أخي الحافظ أبي القاسم علي بن عساكر، صاحب «تاريخ دمشق» لازمه العز كثيراً، وأخذ عنه الفقه، والحديث، وتأثر به في علمه، وأخلاقه، وسلوكه[1].

2 – جمال الدين الحرستاني:

هو عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي، قاضي القضاة، جمال الدين، أبو القاسم الخزرجي الأنصاري، الدمشقي، المعروف بابن الحرستاني، قاضي دمشق، من ذُرِّيَّة سعد بن عبادة، رضي الله عنه، جمع الحديث، وسمَّاه الذهبي: مسند الشام، شيخ الإسلام. وكان إماماً، فقيهاً، عارفاً بالمذهب، ورعاً، صالحاً، محمود الأحكام، حسن السيرة، كبير القدر: .. وولي القضاء بدمشق نيابةً... ثم إنه ولي قضاء القضاة استقلالاً في سنة 612هـ[2] وكان عالماً صالحاً، زاهداً، على طريقة السلف في لباسه، وعفَّته، وكان صارماً، عادلاً، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وله حكايات عظيمة مع الملك المعظم عيسى في أحكامه، ولم تفته صلاةٌ بجامع دمشق في جماعة إلا إذا كان مريضاً، وعمَّر دهراً طويلاً، وتوفي سنة أربع عشرة وستمئة وله 95 سنة، وكان من أعدل القضاء، وأقومهم بالحق، تتلمذ عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وسمع منه الحديث، وأخذ عنه الفقه، وقال فيه الشيخ عز الدين: إنه لم يرَ أفقهَ منه، وعليه كان ابتداء اشتغاله. ثم صحب فخر الدين ابن عساكر، ورجَّح الشيخ عز الدين بن الحرستاني ـ في علمه ـ على ابن عساكر، وكان الحرستاني حفظ «الوسيط» للغزالي[3]. وقال سبط ابن الجوزي: كان زاهداً، عفيفاً، ورعاً، نزِهاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، اتفق أهل دمشق على أنه ما فاتته صلاةٌ بجامع دمشق في جماعة إلا إذا كان مريضاً، ثم ساق حكاياتٍ من مناقبه، وعدله في قضاياه، وأُتِيَ مرَّةً بكتابٍ، فرمى به، وقال: كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب! فبلغ العادل قوله، فقال: صدق، كتاب الله أولى من كتابي! وكان يقول للعادل: أنا ما أحكم إلا بالشرع، وإلا؛ فأنا ما سألتك القضاء، فإن شئت؛ فأبصر غيري[4]. وقال أبو شامة: ابنه العماد هو الذي ألحَّ عليه؛ حتى تولى القضاء. وحدثني ابنه؛ قال: جاء

---

[1]. وفيات الأعيان (316/2) والعز بن عبد السلام للزحيلي ص57.

[2]. سير أعلام النبلاء (80/22 - 82).

[3]. المصدر نفسه (82/22).

[4]. سير أعلام النبلاء (83/22).

إليه ابن عُنَيْن، فقال: السلطان يُسلمُ عليك، ويوصي بفلان، فإنَّ له محاكمةً! فغضب، وقال: الشَّرع ما يكون فيه وصية[1]! وقال المنذري: سمعت منه، وكان مهيباً، حَسَن السَّمت، مجلسه وقارٌ، وسكينة، ويُبالغ في الإنصات إلى مَنْ يقرأ عليه[2].

3- سيف الدين الامدي:

هو عليُّ بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي، أبو الحسن المعروف بسيف الدين الامدي أحد أذكياء العالم، وُلد بعد سنة 550هـ بيسير بمدينة امد، وقرأ بها القران، وحفظ كتاباً في مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ثم قَدِم بغداد، فقرأ بها القراءات، وتفقَّه على أبي الفتح بن المنى الحنبلي، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وصحب أبا القاسم بن فضلان، وبرع عليه في الخلاف، وتفنَّن في علم النظر، وأحكم الأصلين، والفلسفة، وسائر العقليات، ثم دخل مصر، وتصدَّر للإقراء وتخرَّج به جماعة، ثم وقع التعصُّب عليه، فخرج من القاهرة متخفياً، ثم قدم دمشق، ودرَّس بالمدرسة العزيزية، ثم أخذت منه، وتوفي بدمشق سنة 631هـ، له تصانيف تربو على العشرين، كلُّها منقّحة حسنة، منها: «الأبكار» في أصول الدين، و«الأحكام» في أصول الفقه، و«شرح جدل الشريف» وقد درس عليه العزُّ الأصول، واستفاد منه كثيراً، وتأثر به، ويبدو ذلك في كتاب العزِّ: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» وكان من المعجبين به، وبطريقة تدريسه، ومناظرته، وقد تفلت عنه عبارات تشيد بذلك، منها قول العزّ: ما سمعت أحداً يُلقي الدرس أحسن منه، كأنه يخطب، وإذا غيَّر لفظاً في «الوسيط» للغزالي كان لفظه أمسَّ بالمعنى من لفظ صاحبه، وقال: ما علمنا قواعد البحث إلا من سيف الدين الامدي[3]. وقال: لو ورد على الإسلام متزندق يشكِّك ما تعيَّن لمناظرته غير الامدي لاجتماع أهليَّة ذلك فيه[4]. ولما توفي سيف الدين الامدي؛ خرج الإمام العزُّ في جنازته، وحضر دفنه في سفح جبل قاسيون[5].

---

[1]. المصدر نفسه (83/22).

[2]. المصدر نفسه (83/22).

[3]. العز بن عبد السلام سلطان العلماء، فاروق عبد المعطي ص18.

[4]. طبقات السبكي (306/8 - 308).

[5]. النجوم الزاهرة (285/6).

4. القاسم بن عساكر:

هو القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله وهو الحافظ أبو محمد بن الحافظ أبي القاسم بن عساكر بهاء الدين، كتب الكثير؛ حتى إنه كتب تاريخ والده «تاريخ دمشق» مرتين، وهو من أسرة علمية، وله كتاب «فضل المدينة» و«فضل المسجد الأقصى» و«الجهاد» وتولَّى مشيخة دار الحديث النووية بعد والده، ولم يتناول أجراً على ذلك، بل كان يدفعه للطلبة، وكان ناصر السنة في إماتة البدعة، سمع منه خلقٌ كثير، وأملى كثيراً، وحدَّث، ودخل مصر، وانتفع به أهلها، وعاد إلى دمشق، ومات بها سنة 600هـ وكان يحب المزح، وكثير النوافل، والذكر، معرضاً عن المناصب بعد عرضها عليه، وكان حسن المعرفة، شديد الورع، كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قليل الالتفات إلى الأمراء وأبناء الدنيا، سمع العزُّ منه الحديث، وانتفع به في منهجه، وسلوكه[1].

5. عبد اللطيف بن شيخ الشيوخ:

ومن شيوخ العزِّ ـ رحمه الله ـ عبد اللطيف بن شيخ الشيوخ، وهو: عبد اللطيف بن إسماعيل ابن شيخ الشيوخ أبي سعد، وكنيته أبو الحسن، ولقبه ضياء الدين، وهو اخو شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل؛ الذي قدم رسولاً على صلاح الدين الأيوبي من بغداد مراراً، سمع الحديث من شيوخ عصره ومن والده، واخرين، كان صالحاً، ثقة، رحل إلى مصر، والقدس، والخليل، وقدم دمشق، ولقي شيوخها، وأخذ عنه العزُّ ـ رحمه الله ـ الحديث، وسمع منه، وتأثر بأخلاقه الفاضلة، وهمَّته العالية، توفي ـ رحمه الله ـ في دمشق، ودفن فيها سنة 596هـ[2].

6. الخشوعي:

ومن شيوخ العزِّ أبو طاهر بركات بن إبراهيم ابن طاهر الخشوعي مسند الشام في عصره، وطال عمره، حتى شاخ تلامذتُه، وقد انتفع به خلقٌ كثير، منهم العزُّ بن عبد السلام؛ الذي تلقَّى العلم على يديه منذ أيامه الأولى، وقد اختُلف في تاريخ وفاته، فذكر ابن كثير: أنه توفي سنة 597هـ[3]، وقال ابن تغْري

---

[1]. طبقات الشافعية (352/8) والأعلام (12/6).

[2]. النجوم الزاهرة (159/6) وفتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص74.

[3]. البداية والنهاية نقلاً عن فتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص74.

بردي: توفي الخشوعي سنة 598هـ[1].

7. حنبل الرصافي:

هو أبو علي حنبل بن عبد الله بن الفرج بن سعادة المكبر بجامع الرصافة، وكان فقيراً جداً في أول حياته، ثُمَّ حصَّل مالاً طائلاً، وقد سمع مسند الإمام أحمد من ابن الحصين، وهو اخر من رواه عنه، وقد رحل إلى إربل، والموصل، ودمشق، وأسمع المسند بهذه البلاد، وقد سمع منه الملك المعظم عيسى بن العادل في جمعٍ كثير في الجامع الأموي، وكان كثير الأمراض. توفي ببغداد سنة أربع وستمئة وله تسعون سنة، وال ماله إلى بيت المال؛ لأنه لا وارث له. وقد سمع منه العزُّ بن عبد السلام[2].

8. عمر بن طبرزد:

هو أبو حفص عمر بن محمد بن يحي المعروف بابن طبرزد الدّارقزي. ولد سنة 516هـ، وسمع حديثاً كثيراً من أبي غالب بن البنَّاء، وأبي القاسم بن الحصين، وكان معلماً للصبيان بدار القزِّ ببغداد، وسافر مع حنبل إلى الشام، ثم عاد إلى بغداد، وقد جمعا مالاً كثيراً، وتوفي سنة 607هـ وعاد ماله إلى بيت المال؛ لأنه لا وارث له[3].

9. شهاب الدين السَّهروردي:

ومن شيوخ العز الذين أثروا به، وتأثر بهم الإمام العارف أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه بن سعيد بن الحسن السَّهروردي، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه. ولد سنة 530هـ بـ «سَهْرَوَرْد» وقدم بغداد، فصحب عمَّه، وأخذ عنه التصوُّف، والوعظ، وسمع الحديث على شيوخ عصره، وتفقَّه على علماء بغداد، كما صحب الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ) رحمه الله، فكان عالماً فاضلاً، ومحدثاً حافظاً، وعابداً زاهداً، أقبل على الله، وسلوك طريق الاخرة، واستغرق أوقاته بالعبادات، والأوراد، والأذكار، ولزم باب الله تعالى، ففتح الله ـ عز وجل ـ عليه؛ حتى صار أوحد زمانه، وفريد عصره.

---

[1]. النجوم الزاهرة (181/6) وفتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص74.

[2]. تاريخ دول الإسلام (111/2).

[3]. النجوم الزاهرة (201/6) والعز بن عبد السلام سلطان العلماء ص20.

دعا الخلقَ إلى الله تعالى، فاستجاب الناسُ له، كان كلامه اخذاً بمجامع القلوب، ويدخل إلى زوايا النفوس، فيحرك مكامنها... وإليه المنتهى في تربية المريدين. من أهم كتبه: «عوارف المعارف» فانتفع به خلق كثير، منهم إمامنا العزُّ بن عبد السلام، حيث لازمه، وأخذ عنه العفة، والورع، والزهد، والتصوف، توفي ببغداد سنة 632هـ. فهؤلاء هم أهمُّ شيوخ العز بن عبد السلام الذين أخذ عنهم العلم، والفقه، والحديث، والأصول، والتفسير، واللغة، والتصوُّف، تأثَّر بسلوكهم في الحياة. وهناك شيوخ اخرون، سمع منهم العزُّ، وأخذ عنهم، لا يمكن حصرُهم لكثرتهم[1]. وهذا الشيخ شهاب الدين السَّهروردي يختلف عن الذي قُتل في عهد صلاح الدين.

خامساً: تلاميذ العزِّ بن عبد السلام:

لقد قصد العزَّ بن عبد السلام تلاميذ نجباء، اجتمعوا عليه من شتَّى أقطار الأرض؛ لينهلوا من علمه، ويتعلَّموا من فقهه، وليشربوا من نبعه الفيَّاض، حتى تخرَّج على يديه فحول العلماء؛ وجهابذة الفقهاء، وساعده على ذلك تفرغه للتدريس، والتعليم في شتَّى فروع علم الشريعة، فألقى دروساً في الفقه، والتفسير، والأصول، والتصوُّف، والوعظ، والإرشاد، فتعلَّقت به العامَّة والخاصَّة، وطمع كلُّ طالب علمٍ أن يرى هذا الشيخ؛ لينال من بركاته، وفيوضاته، وعلومه الغزيرة في كلِّ فن، فمن العسير أن نحيط علماً بكلِّ تلامذته، وطالبي علمه، فيفترض أنَّ كلَّ طلاب العلم في مصر، ومن حولها، أو مرَّ بها في ذلك العصر تتلمذ على يد الشيخ، وذلك لذيوع صيته، وانتشار سمعته[2].

قال العماد: ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد[3]، ومن أهمِّ تلاميذ العز بن عبد السلام؛ الذين نهلوا من علمه، وتربوا على يديه هم:

1 . شيخ الإسلام ابن دقيق العيد:

هو تقي الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين علي بن وهب بن مطيع القشيري، وُلد في الخامس والعشرين من شعبان سنة 625هـ وتفقه ببلده قوص ـ إحدى مدن صعيد مصر ـ على والده وكان مالكيَّ

---

[1]. فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ص75، 76.

[2]. فتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص85.

[3]. شذرات الذهب (523/7 ، 524).

المذهب، ثم رحل إلى القاهرة، وتفقَّه على العزِّ بن عبد السلام، فحقَّق المذهبين. قال ابن السبكي في ترجمته: شيخ الإسلام، الحافظ، الزاهد، الورع، الناسك، المجتهد المطلق، ذو الخبرة التامّة بعلوم الشريعة، الجامع بين العلم والدين، والسالك سبيل السادة الأقدمين، أكملُ المتأخرين[1]، وقد وُلِّيَ قضاء القضاة على مذهب الشافعي بمصر بعد تقيِّ الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب ابن بنت الأعزِّ بعد إباءٍ شديد، وعزل نفسه أكثر من مرَّةٍ، ثم يُعاد[2]. توفي في حادي عشر صفر سنة 702هـ وكان جريئاً في الحق، متأثراً بشيخه العز في هذا المجال، حيث كان ينادي عامة الناس: السُّلطان فما دون: «يا إنسان» دون ألقاب، ومقدمات، وله مواقف مع ملوك عصره تدلُّ على جرأته، وصرامته، وقوله الحق لا يخاف في الله لومة لائم، متشبهاً بشيخه العزِّ بن عبد السلام، وكان يجلُّه، ويقتفي أثره، ويسير على نهجه. توفي رحمه الله سنة 702هـ، ودفن بالقرافة تاركاً خلفه ثروةً علميَّةً هائلةً، أهمُّها «الإلمام في أحاديث الأحكام» وغيره[3] وكانت له مواقف شجاعة من السلطان محمد بن قلاوون حينما أراد أن يجمع المال من الرعيَّة لحرب التتار، وقد أفتاه بجواز ذلك ابن الخشَّاب، ولكنَّ ابن دقيق العيد منعه من ذلك، لأنَّ الأمراء لديهم الأموال، والذهب، وأنَّ فيهم من جهّز ابنته لِتُزَفَّ إلى زوجها وأنه عمل في شوارها الجواهر، واللالىء، والحليَّ، والذهب، واتخذ فيها الأواني من الفضَّة، وأن منهم من رصَّع مداس زوجته بالجواهر[4]. وهذا شبيه بموقف العزِّ من الملك المظفَّر «قطز» حينما أراد أن يأخذ المال من الرعيَّة لحرب التار، فمنعه العزُّ من ذلك؛ حتى يُحضِر الأمراء ما عندهم من الذَّهب، والفضَّة، والسُّروج المذَهَّبيَّة[5]، وغيرها.

2 . القرافي:

هو أحمد بن عبد الرحمن القرافي، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي، من علماء المالكية، نسبته إلى صنهاجة من برابرة المغرب[6]، عالم زمانه، أحد الأعلام، انتهت إليه رياسة المالكية في عصره، وبرع في الفقه، والأصول، والعلوم العقلية، والتفسير، ولا عجب، فهو تلميذ العز بن عبد السلام النجيب؛ الذي

---

[1]. طبقات الشافعية الكبرى (207/9).

[2]. العز بن عبد السلام ، سلطان العلماء ص23.

[3]. فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ص858.

[4]. العز بن عبد السلام ، سلطان العلماء ص24.

[5]. المصدر نفسه ص24.

[6]. مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص61.

عاش فقيراً، ونشأ في أسرةٍ مغمورةٍ، ثم بعلوّ همَّته، وجدِّه، وعزيمته التي لا تلين ملأ الدنيا علمه، تخرج على يديه عدد من العلماء الأفاضل، وكتب، وألَّف؛ حتى أصبحت كتبه أعلاماً للسالكين، ومن أجلِّها: «الذخيرة» و«الفروق» و«شرح التهذيب» وغيرها.

أ ـ وقد تأثر القرافي بالعزِّ من خلال الموازنات الفقهية التي عقدها القرافي في الذخيرة بين المذهبين:

المالكي، والشافعي، وحتى في كتابه الفروق، وكان منهج الإمام العزِّ الذي تتلمذ على يديه عددٌ كبيرٌ من الطلبة مع اختلاف مدارسهم الفقهية عدم الانسلاخ عن مذاهبهم؛ التي يتمذهبون بها، والأخذ بمذهبه الشافعي بقدر ما كان يحاول رسم الطريق، والمنهج في التعامل مع الأحكام الشرعية، والنصوص استنباطاً، واجتهاداً، وتعليلاً.

ب ـ التفريق بين القواعد الفقهية:

فكرة التفريق بين القواعد الفقهية أخذها القرافي من العزِّ بن عبد السلام ـ رحمهما الله ـ حيث يذكر في ثنايا كتابه: «قواعد الأحكام» فروقاً بين الفروع الفقهية المتشابهة في الظاهر، ولكن بينهما وجه مفارقة. ومثاله: من سقى الأشجار بماءٍ مغصوب من حين غرسها حين بسَقَت؛ ضَمِن الماء بمثله، ولاحقَّ لمالكه فيما استحال إلى صفات الأشجار؛ لأنه صار ملكاً لصاحب الشجرة، كما صار الغذاء ملكاً لصاحب الحيوان لما تعذر وصول مالكه إليه... حتى قال: فإن قيل: كيف يملك الغاصب ذلك بتعدِّيه بسقي الماء المغصوب للشَّجر، وإطعام الطعام المغصوب للحيوان، ومن مذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ: أنَّ الغاصب لو أتلف أكثر منافع المغصوب لم يملكه؟ قلنا: الفرق بينهما إمكان الرَّدِّ إذا أُتلف معظم منافع المغصوب، وتعذُّر الردِّ هاهنا مع حدوث المالية فيما بقي بقوى الأشجار، والحيوان المختصين بملك الغاصب[1].

ج ـ النظر إلى سبب تأليف القرافي للفروق:

بالنظر إلى سبب تأليف القرافي للفروق على أنه في القواعد خاصة؛ التي نثرها في الذخيرة، ثم جمعها في الفروق، وزاد في شرحها، وبيانها، والكشف عن أسرارها، وحِكمها. وأمّا كتاب قواعد الأحكام؛ فقد صرَّح العزُّ بسبب تأليفه، فقال: الغرض بوضع هذا الكتاب بيان مصالح الطاعات، والمعاملات، وسائر

[1] قواعد الإحكام (273/1).

التصرُّفات ليسعى العباد في اكتسابها، وبيان مقاصد المخالفات ليسعى العباد في درئها، وبيان مصالح المباحات ليكون العباد على خِيَرةٍ منها، وبيان ما يُقَدَّم من بعض المصالح على بعض، وما يُؤخَّر من بعص المفاسد عن بعض، ممَّا يدخل تحت إكساب العباد دون مالا قدرة لهم عليه[1].

د . نبذ القرافي للتعصب المذموم للمذهب:

تأثر القرافي ـ رحمه الله ـ بمنهج شيخه في نبذ التعصُّب المذموم للمذاهب، والدَّعوة إلى الاجتهاد المبني على أسسٍ علميَّة متينةٍ، فاصطبغت اراؤه الاجتهادية بمحاربة التقليد، وضرورة مراقبة المذاهب الفقهية، خاصة الفتاوى المبنية على الأعراف، والمصالح ممَّا كان في عصر الأئمة على اعتبار معين، ثم زال ذلك الاعتبار[2]. قال الإمام العزُّ ـ رحمه الله ـ: والفقيه مَنْ رأى الواضح واضحاً، والمشكل مشكلاً، ومن تكلَّف أن يجعل المشكل واضحاً؛ فقد كلَّفَ نفسه شططاً، فإن كان عاقلاً؛ كان أوَّل ماقتٍ لنفسه، والتعصُّب للحق على الرِّجال أولى من التعصُّب للرِّجال على الحق[3]. ووضَّح القرافي كلام شيخه غاية التوضيح، فقال: تنبيه: كل شيء أفتى فيه المجتهد، فَخُرِّجتْ فتياه فيه على خلاف الإجماع، أو القواعد، أو النَّص، أو القياس الجَلِيِّ السَّالم عن المعارض الرّاجح لا يجوز لمقلِّده أن ينقله للنّاس، ولا يفتي به في دين الله، فإن هذا الحكم لو حكم به حاكم؛ لنقضاه... حتى قال: فعلى هذا يجب على أهل العصر تفقد مذاهبهم، فكلُّ ما وجدوه من هذا النوع يحرم عليهم الفتيا به، ولا يعرى مذهب من المذاهب عنه، لكنَّه قد يَقِلُّ، وقد يكثر[4].

هـ توظيف القواعد المقاصدية في الاجتهاد:

لم يَضع القرافي ـ رحمه الله ـ كتاباً خاصاً بمقاصد الشريعة، وأسرارها، بحيث يعرِّفها، ويذكر فروعها، ويُفصِّلُ القول في قواعدها، ومباحثها، كما فعل شيخه العز بن عبد السلام، لكنه اتجه إلى توظيف هذه القواعد المقاصدية للاجتهاد، وتعليل الفروع الفقهية، وجزئيات الأحكام، ويكون بذلك قد فَعَّلَ من مُهمة هذه القواعد وأعطاها صفةً عمليَّةً، وأخرجها من النظرية إلى التطبيق، خاصةً في الفروق عندما قصد إظهار هذه النظرية المصلحية بين القواعد الفقهية؛ التي تظهر عند المقارنة بينها مناسباتُ الأحكام،

---

(1) قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي ص73.

(2) المصدر نفسه ص73.

(3) قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي ص74.

(4) المصدر نفسه ص74.

وعللها، أكثر ممَّا إذا كانت فروعاً جزئيةً، فإذا كان للشيخ العزِّ فضل السَّبق، والتنظيم، والتبويب؛ فللقرافي ـ رحمه الله ـ شرف الاجتهاد، والمواصلة، والتفعيل:

وهو بِسَبْقٍ حائزٍ تفضيلا ... مستوجبٌ ثنائيَ الجميلا

واللهُ يقضي بهباتٍ وافره ... لي وَلَهُ في دَرَجَاتِ الاخرة[1]

و ـ التمثيل للقاعدة بالفروع الفقهية:

على عكس القرافي، يكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام من التمثيل للقاعدة التي بصَدَدِ دراستها بالفروع الفقهية؛ حتى يقرِّرها في ذهن المطالع، ونجد القرافي يكثر من حشد القواعد التي تكون في محل الخلاف بين طرفين متنازعين، أو تدعم فرقاً يعتقده أو يدافع عنه، فالعزُّ لما مثَّل لقاعدة رُجحان المصالح والمفاسد؛ ذكر لها 63 مثالاً، ولما مثَّل لقاعدة اجتماع المصالح المجرَّدة عن المفاسد؛ ذكر لها 63 مثالاً، ولما مثَّل لأنواع الحقوق المتعلقة بالقلوب؛ ذكر لها 29 مثالاً، ولما مثَّل تساوي المصالح، وتعذّر جمعها؛ ذكر لها مثالاً[2].

ز ـ حرص القرافي على نقل وتدوين اراء شيخه:

وحتى ولو خالفه في الرأي، والاجتهاد، ويظهر هذا التأثير البالغ من القرافي عند ما يذكر شيخه العزَّ، فيغدق عليه عبارات الثناء، والإعجاب. فهو يقول مَثلاً في الفرق الخامس والتسعين: ولم أرَ أحداً حرَّره ـ هذا الفرق ـ هذا التحرير إلا الشيخ عز الدين بن عبد السَّلام ـ رحمه الله ـ، وقدَّس روحه الكريمة ـ فلقد كان شديد التحرير لمواضع كثيرةٍ في الشريعة، معقولها، ومنقولها، وكان يَفْتَحُ عليه بأشياء لا توجد لغيره، رحمه الله رحمة واسعة[3]! ورغم المكانة العظيمة التي أحلّها القرافي شيخه من نفسه؛ فإنه في كثير من المواضع يناقشه في مسائل يختلف معه فيها كلُّ ذلك بأدبٍ، وتواضعٍ كبيرين[4].

ومن القواعد التي ذكرها القرافي في كتاب الفروق:

ـ تصرُّف الولي منوطٌ بالمصلحة.

(1) المصدر نفسه ص76.
(2) قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي ص76.
(3) المصدر نفسه ص77.
(4) المصدر نفسه ص77.

. اعتماد الأوامر المصالح، والنواهي المفاسد.

. خمس اجتمعت الأمم مع الأمة المحمَّدية عليها، وهي:

. وجوب حفظ النفوس، والعقول، والأعراض، والأنساب، والأموال.

. درء المفاسد أولى من جلب المصالح.

. تقدم المفسدة الخاصة على العامة عند التعارض.

. إذا تعارضت مفسدتان؛ رُوعي أعظمهما بارتكاب أخفِّهما.

. احتياط الشارع في الخروج من الحرمة إلى الإباحة أكثر من خروجه من الإباحة إلى الحرمة.

. الوسائل لها حكم المقاصد.

. الوسائل أخفض رتبة من المقاصد.

. الوسيلة إذا لم تُفض إلى المقصود؛ سقط اعتبارها.

. المقصد إذا كان له وسيلتان؛ يُخيَّر بينهما.

. ما لا يتم الواجب إلا به؛ فهو واجب.

. المشقة تجلب التيسير.

. الضرورات تبيح المحظورات.

. الأجر على قدر المصلحة، والعقاب على قدر المفسدة.

وقد قام الشيخ قندوز محمد الماحي بتقديم رسالة ماجستير، اسمها: قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي من خلال كتابه الفروق، فتحدث عن القواعد المتعلِّقة بجلب المصالح، ودرء المفاسد، فتحدَّث عن صياغة القاعدة، وشرحها، وأدَّلتها، وضابط القاعدة، وفروعها، ومستثنياتها، وتكلَّم عن قواعد الترجيح بين المصالح والمفاسد، وقواعد الوسائل، وقواعد المشقَّة، والتيسير، وقام بتعريف المشقَّة، وبيان القاعدة، وأدلتها، وأقسامها، وضابطها، وفروعها[1] ... إلخ.

إنَّ ميراث الأمة الإسلامية في عهد العزِّ بن عبد السلام، والقرافي ميراثٌ علمي زاخر، مستمدٌّ من الأصول التشريعية المعتمدة عند علماء الشريعة، ومجتهديها، كان منطلقهم الكتاب، والسنة، وما يلحق بهما من أصول اجتهادية، بحيث عاشوا واقعهم، وتفاعلوا مع أحداث أزمانهم، ورسموا لمن يأتي بعدهم رُؤى، ومعالم يسيرون عليها؛ حتى لا يحيدوا عن الجادة المستقيمة، والمحجَّة البيضاء الناصعة، فعلى خطاهم

[1] قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي ص344.

يسير الخلف من هذه الأمة، وعلى اجتهاداتهم يبنون، فأيُّ محاولة لتخطي التراث العلمي الزاخر، وتلك الاجتهادات الفقهية، والمدوَّنات العلمية تحت دعوة التجديد، والتطوير؛ إنما هي ضرب من المسخ لهذه الأمة، وتجريد لها عن سلفها؛ الذين جمعوا بين فقه الواقع، وفقه التنظير، فواجهوا مستجداتِ عصرهم بالحلول الشَّرعية السلمية[1].

. إنَّ دراسة تاريخ الأمة الإسلامية، وأوضاع كلِّ قرن له دورُهُ الفَعَّال في الاستفادة من تاريخ السابقين، وتجاربهم؛ حتى لا نقع في نفس الأخطاء؛ التي وقعوا فيها؛ لأن عدونا قد أحسن قراءة تاريخنا، وأمسك بمفاصل الضَّعف فينا، فأخذ يحرِّكها كيف يشاء، وواقعنا خير شاهدٍ على ذلك.

. التركيز على الشخصيات التي كانت لها قدراتٌ علميةٌ كبيرة، وكانت متحرِّرةً من ربقة التقليد، والجمود؛ بحيث أثرت في واقعها؛ التي عاشت فيه، إما بالجهاد القوليِّ، أو العلميِّ، وهذا ما لمسناه في شخصية الإمام القرافي، وشيخه العزِّ بن عبد السلام، فالأول كان قائد حركةٍ علمية جهاديةٍ كبيرة في مصر، والثاني جمع بين الجهاد باللِّسان، والبنان[2].

. كلُّ اجتهاد فقهيٍّ عار عن النظرة المصلحية والبعد المقاصدي، ومرتكزات الواقع المعاش لا سبيل إلى التفاعل معه؛ لأنه أبعد ما يكون عن روح الشَّريعة، ومقاصدها.

. الخروج عن النمط التقليدي في الدِّراسات الفقهية والأصولية، وهذا ما لمسناه في فروق القرافي؛ حيث ابتدع نمطاً تقعيدياً في الدراسات الفقهية، نلمسه من خلال تفريقه بين القواعد الفقهية في حدِّ ذاتها، لا بين الفروع الجزئية، وفي هذه العملية تظهر أسرار الشريعة، ومقاصدُها الكلِّية.

. لقد جمع الإمام القرافي ـ رحمه الله ـ بين معارف عصره الفقهية، والأصولية، واللغوية، والمادية، والفلكية؛ بحيث أعطته زاداً علمياً، فاق به كثيراً من أقرانه، وتحرَّر من ربقة التقليد، وكانت فتاواه ملائمةً ليسر التشريع، وسماحته.

. لم يكتف القرافي بتقعيد القواعد الفقهية بل تعدَّاها إلى تقعيد القواعد الأصولية، والمقاصدية، واللغوية، والمنطقية، وتفعيل هذه القواعد في عملية الاجتهاد، والاستنباط.

. في التكوين العلمي لشخصية القرافي نلمس التحرُّر من المذهبية الضيِّقة، والعصبية الممقوتة، وهذا ما نعيشه في عصرنا من الانفتاح على الثقافات المختلفة، ومحاولة إلزام قومٍ بمذهبٍ واحدٍ إعناتٌ لهم. فلا

[1] المصدر نفسه ص344.
[2] المصدر نفسه ص344.

بأس من الأخذ من المذاهب السُّنّية ـ شرط أن يكون الاخذ له أهلية الأخذ، والترجيح؛ حتى لا تختلط الأحكام، وتتسيب الفتاوى[1].

ـ استخلاص القواعد الفقهية، واستخراجها من بُطون الموسوعات الفقهية، وإفرادها بالدِّراسة، والتدليل لها، وإيراد المستثنيات منها، يُسَهِّل على الباحث الاطلاع على الفروع الفقهية في كلِّ مذهبٍ من المذاهب الفقهيَّة المعتبرة.

ـ أهمية إدراج علم الفروق في المناهج الدِّراسية لطُلاب التخصُّصات الشرعية؛ لأنه يجمع بين التقعيد، والتفريع، والتقصيد[2].

ـ وفاة القرافي: بعد حياة حافلة بالتدريس، والتعليم، والتأليف توفي شهاب الدين القرافي ـ رحمه الله ـ بدير الطين؛ وهي قريةٌ على شاطىء النيل قرب الفسطاط بظاهر مصر، وكان ذلك سنة 684هـ على أرجح الأقوال.

ولنا عودة مع القرافي في حديثنا عن الصِّراع الثقافي في عهد الحروب الصَّليبية بإذن الله تعالى.

3 ـ جلال الدين الدشناوي:

ومن تلاميذ العزِّ بن عبد السلام الإمام أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الكندي الدشناوي، الفقيه، والأصولي، ولد سنة 615هـ في صعيد مصر، وأخذ العلم، والفقه، والحديث، والأصول على علماء عصره، وكان صديقاً.

لابن دقيق العيد، وتلميذاً نجيباً عند العزِّ، والمنذريِّ، وغيرهما من جهابذة العصر؛ حتى بلغ مرتبة الرياسة في المذهب الشافعي. كان ورعاً، زاهداً، عابداً، تقياً. له تصانيفُ عديدةٌ، أهمها: كتاب في المناسك، سماه: «مناسك الحج» كما صنَّف شرحاً على «التنبيه» وصل فيه إلى الصيام، ومقدمةً في النَّحو، وغيرها. توفي رحمه الله سنة 677هـ[3].

4. أحمد بن فرح الأشبيلي:

هو الإمام أحمد بن فرح بن أحمد الأشبيلي، المحدِّث الفقيه، العالم العامل، ولد بأشبيلية سنة 625هـ،

---

[1] قواعد المصلحة والمفسدة ص345.

[2] المصدر نفسه ص345.

[3] طبقات الشافعية الكبرى (20/8 ـ 22) وحسن المحاضرة (417/1).

وأسره النصارى، ثم نجاه الله، ورحل إلى دمشق، وأخذ عن علمائها، ثم ارتحل إلى القاهرة، والتقى بسلطان العلماء، فنهل من معينه، وأخذ من فقهه، وعلمه؛ حتى شاخ على أقرانه، ثم استوطن دمشق، كان له سكينةٌ، ووقار. قال الذهبي (ت765هـ): حضرت مجالسه، وأخذت عنه، ونعم الشيخ كان سكينة، ووقاراً، وديانةً، واستحضاراً (توفي سنة 699هـ) رحمه الله[1]!

5. شرف الدين أبو محمد الدمياطي:

هو الإمام الحافظ عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسين بن شرف بن الخضر الدمياطي، كان إمام أهل الحديث في عصره، ولد بدمياط سنة 613هـ وقرأ فيها القران، والأصول، والفقه، والفرائض على علمائها الأمجاد، ثم ارتحل إلى القاهرة، فلازم المنذري، واستمع منه إلى الحديث؛ حتى صار إماماً فيه، جمع بين الرواية، والدراية بالسَّند العالي، وتتلمذ على سلطان العلماء وأخذ عنه الفقه، والأصول، وسائر العلوم، وخرَّج له أربعين حديثاً عوالي، ثم اشتغل بالتدريس وقصده الطلابِ في الافاق، وتتلمذ عليه طلاب العلم، فنهلوا من علمه الغزير، وصنَّف الكتب المفيدة، أهمُّها: «الصلاة الوسطى» و«قبائل الخزرج» وغيرها (توفي عام 705هـ)[2] رحمه الله!

6. شهاب الدين أبو شامة:

هو الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المكَنَّى بأبي القاسم، وأبي شامة، والملقب بشهاب الدين المقدسي الشافعي، المقرئ، النحوي، الأصولي، المؤرّخ الذي برع في فنون العلم، وقيل: بلغ رتبة الاجتهاد. ولد سنة 599هـ، وختم القران؛ وهو دون العشر سنوات وتفقَّه على العز بن عبد السلام، ولازمه، وأحبَّه، وحفظ كثيراً من أخباره، ورحل إلى مصر، وتفقَّه على علمائها، وعاد إلى دمشق، وزار بيت المقدس، وحجَّ مرَّتين. له مصنفاتٌ عديدةٌ مفيدةٌ، أهمها: «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» و«الذيل على الروضتين» واختصر تاريخ دمشق. قال الأسنويُّ: كان عالماً، راسخاً في العلم، فقيهاً، مقرئاً، محدثاً، نحوياً، يكتب الخط المليح المتقن، وفيه تواضع[3]. وقد امتحن في موته، بأن دخل عليه

---

[1] طبقات الشافعية الكبرى (291/2) والنجوم الزاهرة (191/8).

[2] تذكرة الحفاظ (118/2) وفتاوى شيخ الإسلام ص87.

[3] طبقات الأسنوي (118/2) وفتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص87.

رجلان في صورة المستفتيين، فضرباه ضرباً مبرحاً، فاعتلَّ به، إلى أن مات في سنة 665هـ، وسجَّل في تاريخ هذه المحنة، وذكر تفويض أمره لله، وعدم مؤاخذة من فعل ذلك. رحمه الله[1]!

7. تاج الدين الفركاح:

هو الإمام عبد الرحمن بن إبراهيم بن ضياء الشيخ تاج الدين المعروف بالفركاح، ولد سنة 624هـ، وتفقَّه على العزِّ، وسمع من ابن الصلاح، وغيره من علماء عصره؛ حتى أصبح فقيه الشام في عصره، وكان إماماً مدققاً نظاراً، توفي سنة 690هـ رحمه الله[2]!

8. صدر الدين ابن بنت الأعز:

هو الإمام العادل، الورع الصالح، القاضي الصارم: عمر بن عبد الوهاب بن خلف العلامي ابن قاضي القضاة تاج الدين بنت الأعز أخو تقي الدين سالف الذكر، ولد سنة 625هـ، وسمع من المنذري، وغيره من شيوخ عصره وأخذ الفقه، والأصول عن الإمام عز الدين، وتأثَّر به، وتخلق بأخلاقه، وسار سيرته في القضاء، والشدَّة على الظلمة، والطغاة، وعزل نفسه من القضاء، واقتصر على التدريس، توفي سنة 680هـ[3] رحمه الله!

9. أبو أحمد بن زيتون:

هو أبو أحمد بن أبي بكر بن مسافر ابن أبي بكر بن أحمد بن عبد الرفيع اليمني المالكي الشهير بابن زيتون، كان قاضي الجماعة بتونس، ورحل إلى المشرق مرَّتين، وتفقَّه على عز الدين بن عبد السلام، كما تفقه على علماء عصره، وولي قاضي القضاة، فعظم أمره، وانتفع به الناس، توفي سنة 691هـ، ودفن في تونس رحمه الله[4]!

كما أنَّ هناك الكثير من تلاميذ العز بن عبد السلام، ذكرنا هؤلاء فقط خوفاً من الإطالة.

---

(1) فوات الوفيات (527/1) وفتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص88.

(2) شذرات الذهب نقلاً عن فتاوى شيخ الإسلام ص88.

(3) البداية والنهاية (580/17).

(4) الديباج ، ابن فرحون ص99.

سادساً: مؤلفاته:

ترك الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثروةً من المصنَّفات، والرسائل المفيدة، والفتاوى السَّديدة[1]، تبين لنا منزلته الرفيعة، واطلاعه الواسع على حقائق الشريعة، وغوامضها، وباعه الطويل في معرفة مقاصد الشريعة، وفهمه السليم لمعاني القران الكريم، ومراميه السامية؛ التي رعاها الشارع الحكيم من أجل إسعاد البشرية عامة بإخراجها من ظلمات المفاسد، ومضارِّها إلى نور المصالح، وخيراتها، فاستحق أن يكون من الذين قيل فيهم: علمهم أكثر من تصانيفهم، لا من الذين عبارتهم دون درايتهم، ومرتبته في العلوم الظاهرة مع الصادقين في الرعيل الأول، وأما في علوم المعارف، والعلم بالله؛ فهو معروف عند أهله، فصنَّف في شتى العلوم، منها ما طبع، ومنها مالا يزال مخطوطاً، وقد أفاض المعاصرون في الحديث عن هذه المصنفات[2]، والمؤلفات، وهي تنقسم إلى:

1 ـ التفسير وعلومه: ممَّا ألفه الإمام في التفسير:

أ ـ مختصر تفسير «النكت والعيون للماوردي»:

حققَّه الدكتور عبد الله الوهيبي كجزءٍ من أطروحته لنيل الدكتوراة في التفسير، وقدَّم له دراسة عن العزِّ بن عبد السلام، حياته، واثاره، ومنهجه في التفسير، وقدَّم دراسةً عن منهج العزِّ في هذا المختصر[3].

ب ـ تفسير القران العظيم:

بدأ فيه العز بتفسير الاستعاذة، والبسملة، ثم شرع في تفسير سور القران الكريم، سورةً سورة، مع العناية الواضحة بالنحو، والإعراب[4]. ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً، ويوجد منه خمس نسخ خطية في تركيا[5].

ج ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز:

(1) مقاصد الشريعة عند الإمام العزِّ بن عبد السلام ص48.
(2) المصدر نفسه ص48.
(3) العز للوهيبي ص 10 ، 117.
(4) طبقات الشافعية (248/8).
(5) شجرة المعارف للعزّ ، مقدمة المحقق ص21.

ويختصر أحياناً باسم «مجاز القران» وطبع هذا الكتاب عدَّة مرَّات، واختصر هذا الكتاب ابن قيم الجوزية مع زيادات في كتابه: «الفوائد المشوق إلى علوم القران وعلم البيان»، كما لخص السيوطي كتاب العز مع زيادات عليه وسماه: «مجاز الفرسان إلى مجاز القران» ويعتبر كتاب العز هذا مع كتاب: «قواعد الأحكام»، أهمَّ كتبه على الإطلاق[1].

د . أمالي عز الدين بن عبد السلام:

وهي تشمل: الأمالي في تفسير بعض ايات القران الكريم، والأمالي في شرح بعض الأحاديث المنتقاة، والأمالي في مناقشة بعض المسائل الفقهية. وهذه الأمالي كان العزُّ يلقيها في دروس تفسير القران الكريم، ووجدت عدَّة مخطوطات لها، وتجمع الأمالي الثلاث، بينما اقتصرت بعض النسخ الخطية على القسم الأول، وبعنوان «فوائد العزِّ بن عبد السلام»، ولذلك قام الأستاذ رضوان النَّدوي بتحقيق هذا القسم في رسالته للدكتوراه، ثم طبعته وزارة الأوقاف الكويتية سنة 1967م، ثم أعيد طبعه في دار الشروق بجدَّة سنة 1402هـ/1982م اعتماداً على نسخٍ خطيَّة بعنوان: «الفوائد في مشكل القران»[2].

2 . الحديث، والسير، والأخبار:

أ . شرح حديث: «لا ضرر ولا ضرار»:

نسبه إليه رضوان النَّدوي[3].

ب . شرح حديث «أم زَرْع»:

الذي روته أمُّ المؤمنين عائشة، رضي الله عنها. يوجد منه نسخة خطيَّةٌ بمكتبة الفاتح بإسطنبول برقم 1141م، ويقع في ثلاث ورقات ملحقة في اخر مجلد كبير لنسخةٍ خطيَّةٍ عن «مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري»[4].

---

(1) العزُّ بن عبد السلام ، للزحيلي ص136.
(2) العز بن عبد السلام للزحيلي ص138.
(3) العزُّ للندوي ص75.
(4) العزُّ بن عبد السلام للزحيلي ص138.

ج . مختصر صحيح مسلم:

ذكره ابن السبكي في كتب العزِّ، وذكره الداودي، ولم يرد له ذكرٌ في فهارس المخطوطات الموجودة، فإما أنه لا زال ضمن المخطوطات الخاصة، والمبعثرة في أنحاء العالم، أو فُقِد، وضاع مع ما فُقِد من تراث المسلمين العظيم أيام المحن، والنكبات، والحروب، والاحتلال لبلاد المسلمين.

د . بداية السول في تفضيل الرسول:

وهو رسالة صغيرة، طُبعت في مصر قديماً، وعلَّق عليها الشيخ عبد الله بن محمد الصديق الغماري، ثم حققها الدكتور صلاح الدين المنجد، وطبعتها دار الكتاب الجديد ببيروت سنة 1401هـ، ثم حقَّقها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وطبعها المكتب الإسلامي ببيروت سنة 1403هـ، ثم حققها السيد محمد أديب كلكل، وطبعها بدار الدعوة بحماة، وساق العزُّ اثنين وثلاثين وجهاً لتفضيل الرسول (ﷺ). وهي تعداد الخصائص التي خصَّه الله بها[1].

هـ قصَّة وفاة النبيِّ (ﷺ):

وتوجد منها نسخة في مكتبة برلين برقم 9614[2].

ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام:

وفيها بيان فضل الشام، والترغيب بالسكن فيها. طُبعت عدَّة مرات، الأولى في المطبعة التجارية بالقدس سنة 1359هـ/1940م بعناية أحمد سامح الخالدي الديري، ثم طبعت ببغداد، وعمان بتحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير الميادني سنة 1987م، وقام الأستاذ الشاب إياد الطباع بتحقيقها أيضاً[3]. هذه هي أهمُّ الكتب، والرسائل في الحديث، والسيرة، والأخبار.

3 . الإيمان، والعقيدة، وعلم التوحيد: ومن أهم هذه الكتب:

أ . رسالة في علم التوحيد.

---

(1) المصدر نفسه ص139.

(2) المصدر نفسه ص139.

(3) العزُّ بن عبد السلام للزحيلي ص139.

ب ـ وصية الشيخ عزِّ الدين.

ج ـ نبذة في الردِّ على القائل بخلق القران.

س ـ الفرق بين الإسلام والإيمان.

ش ـ بيان أحوال الناس يوم القيامة.

د ـ ملحمة الاعتقاد أو العقائد[1].

4 ـ الفقه وأصوله: وأهمُّ كتبه في هذه العلوم:

أ ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام:

هذا الكتاب اسمه في المصادر القديمة: «القواعد الكبرى» ويوجد منه نسخ خطية كثيرة في مكتبات العالم. وموضوع هذا الكتاب بيان الأحكام الشرعية باعتبار جلب المصالح، ودرء المفاسد. وقد أوضح العز مقاصد كتابه بقوله: الغرض بوضع هذا الكتاب بيان مصالح الطاعات، والمعاملات، وسائر التصرفات؛ ليسعى العباد في تحصيلها، وبيان مقاصد المخالفات؛ ليسعى العباد في درئها، وبيان مصالح العبادات؛ ليكون العباد على خبرٍ منها، وبيان ما يقدم من بعض المصالح على بعض، وما يؤخر من بعض المفاسد على بعض، وما يدخل تحت اكتساب العبيد دون مالا قدرة لهم عليه، ولا سبيل إليه[2].
وقال في بيان حقيقة المصالح والمفاسد: المصالح أربعة أنواع: اللذات وأسبابها، وهي منقسمة إلى دنيوية، وأخروية، فأما لذات الدنيا، وأسبابها، وأفراحها، والامها وأسبابها، وعمومها وأسبابها؛ فمعلومةٌ بالعبادات، ومن أفضل لذات الدنيا لذات المعارف، وبعض الأحوال، ولذات بعض الأفعال في حقِّ الأنبياء، فليس من جعلت قرة عينه في الصلاة كمن جعلت الصلاة شاقةً عليه، وليس من يرتاح إلى إيتاء الزكاة كمن يبذلها؛ وهو كاره[3]. وأما لذات الآخرة، وأسبابها، وأفراحها وأسبابها، والامها وأسبابها، وغمومها وأسبابها؛ فقد دلَّ عليه الوعيد، والزجر، والتهديد، وأما اللذات؛ فمثل قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: 71] وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ

[1] العز بن عبد السلام سلطان العلماء د. فاروق عبد المعطي ص52 إلى 55.
[2] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (10/1).
[3] المصدر نفسه (11/1 ، 12).

بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات: 45-46] أما الأفراح؛ ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: 11] وقوله ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[آل عمران: 170] وفي مثل قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: 171]. وأما الآلام ففي مثل قوله تعالى:﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 36] وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: 17]. وأما العموم ففي مثل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: 22].

ثم شرع بعد ذلك يذكر قواعد في المصالح، والمفاسد، ويقررها بالشرح، ثم يوضِّحها بالأمثلة الكثيرة المتنوِّعة، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في اجتماع المصالح المجرَّدة عن المفاسد، فقال: إذا اجتمعت المصالح الأخروية الخالصة، فإن أمكن تحصيلها؛ حصَّلناها، وإن تعذر تحصيلها؛ حصَّلنا الأصلح فالأصلح، والأفضل فالأفضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 17-18] ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: 55] وقوله:﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: 145]. فإذا استوت مع تعذر الجمع؛ تخيرنا، وقد يقرع، وقد يختلف في التساوي، والتفاوت، ولا فرق في ذلك بين المصالح، والواجبات، والمندوبات لبيان الأفضل، وتقديم الفاضل على المفضول[1]. وضرب أمثلة كثيرة نذكر منها مثالاً واحداً، كتقديم كل فريضة على نوعها من النوافل، كتقديم فرائض الطَّهارات على نوافلها، وفرائض الصَّلوات على نوافلها، وفرائض الصَّدقات على نوافلها[2]. واستمرَّ يذكر أمثلةً لتوضيح هذه القاعدة، ويفرّع عليها فروعاً؛ حتى ذكر ثلاثة وعشرين مثالاً في تقديم الفاضل على المفضول[3].

وقال في تساوي المصالح مع تعذُّر جمعها: إذا تساوت المصالح مع تعذر الجمع تخيَّرنا في التقديم، والتأخير للتنازع بين المتساويين[4]. ثم ذكر فصلاً في اجتماع المفاسد المجرَّدة عن المصالح، فقال: إذا اجتمعت المفاسد المحضة، فإن أمكن درؤها؛ درأنا، وإن تعذر درء الجميع؛ درأنا الأفسد فالأفسد، والأرذل فالأرذل، فإن تساوت؛ فقد يتوقف، وقد يتخير، وقد يختلف في التساوي، والتفاوت، ولا فرق في ذلك بين مفاسد المحرَّمات، والمكروهات[5]. ثم ذكر فصلاً في اجتماع المصالح مع المفاسد، فقال: إذا

---

(1) العز بن عبد السلام حياته واثاره ومنهجه في التفسير ص136.
(2) المصدر نفسه ص 136
(3) المصدر نفسه ص 136.
(4) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (88/1).
(5) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (93/1).

اجتمعت مصالح، ومفاسد، فإن أمكن تحصيل المصالح، ودرء المفاسد؛ فعلنا ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى فيهما لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]. وإن تعذر الدرء، والتحصيل، فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة؛ درأنا المفسدة، نبالي بفوات المصلحة. قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219] حرَّمهما؛ لأن مفسدتهما أكبر من، أما منفعة الخمر فبالتجارة، ونحوها، وأما منفعة الميسر؛ ففيما يأخذه المقامر من المقمور. وأما مفسدة الخمر؛ فبإزالتها العقول، وما تحدثه من العداوة، والبغضاء، والصدِّ عن ذكر الله، وعن الصلاة. وأما مفسدة القمار؛ فبإيقاع العداوة، والبغضاء، والصدِّ عن ذكر الله، وعن الصلاة. وهذه مفاسد عظيمة لا نسبة إلى المنافع المذكورة إليها. وإن كانت المصلحة أعظم من المفسدة؛ حصَّلنا المصلحة مع التزام المفسدة. وإن استوت المصالح، والمفاسد؛ فقد يتخير بينهما، وقد يتوقَّف فيهما، وقد يقع الاختلاف في تفاوت المفاسد[1].

ثم ذكر فصلاً في بيان الوسائل إلى المصالح، فقال: يختلف أجر وسائل الطاعات باختلاف فضائل المقاصد، ومصالحها، فالوسيلة إلى المقاصد أفضل من سائر الوسائل، فالتوسُّل إلى معرفة الله تعالى، ومعرفة ذاته، وصفاته أفضل من التوسل إلى معرفة أحكامه، والتوسُّل إلى الجهاد أفضل من التوسل بالسعي إلى الجمعات، والتوسُّل بالسعي إلى الجمعات أفضل من التوسُّل بالسعي إلى الجماعات في الصَّلوات المكتوبات[2].

ثم ذكر فصلاً في بيان وسائل المفاسد، فقال: يختلف وزن المخالفات باختلاف رذائل المقاصد، ومفاسدها، فالوسيلة إلى أرذل المقاصد أرذل من سائر الوسائل، فالتوسُّل إلى الجهل بذات الله، وصفاته أرذل من التوسُّل إلى الجهل بأحكامه، والتوسُّل إلى القتل أرذل من التوسل إلى الزنى، والتوسُّل إلى الزنى أقبح من التوسل إلى أكل المال بالباطل، والإعانة على القتل بالإمساك أقبح من الدلالة عليه، وكذلك مناولة الة القتل أقبح من الدلالة عليه[3].

وقال في اخر الجزء الثاني مؤكداً ما سبق من أن الله أمر بكلِّ خير، ونهى عن كلِّ شر، فالخير يعبَّر به عن جلب المصالح، والشر يعبر به عن جلب المفاسد، ومن المصالح، والمفاسد مالا يعرفه إلا كلُّ ذي فهم سليم، وطبع مستقيم[4]. فقد قال: ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب، والسنَّة؛ لعلمنا: أنَّ الله أمر

---

(1) المصدر نفسه (98/1).

(2) المصدر نفسه (123/1).

(3) المصدر نفسه (126/1).

(4) العز بن عبد السلام، حياته واثاره ومنهجه في التفسير ص138.

بكلّ خيرٍ دِقّهُ، وجلّه، وزجر عن كل شيءٍ دِقّه، وجلّه، فإن الخير يعبَّر به عن جلب المصالح، ودرء المفاسد، والشر يعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8] وهذا ظاهر في الخير الخالص، والشرِّ المحض، وإنما الإشكال إذا لم يعرف خير الخيرين وشرُّ الشرَّين، أو يعرف ترجيح المصلحة على المفسدة، أو ترجيح المفسدة على المصلحة، أو جهلنا المصلحة، والمفسدة، ومن المصالح والمفاسد مالا يعرفه إلا كلُّ ذي فهمٍ سليمٍ، وطبعٍ مستقيمٍ، يعرف بهما دِقَّ المصالح، والمفاسد، وجلُّهما، وأرجحهما من مرجوحهما... إلى أن قال: وأجمع اية في القران للبحث على المصالح كلِّها، والزَّجر عن المفاسد بأسرها[1] قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

وأسلوب الشيخ العز خالٍ من تعقيدات الفقهاء، وفيه سجع غير متكلّف، وفي بعض المواضع يغلب عليه أسلوب الوعظ. ومن أمثلة ذلك ما قاله في كلام طويل نختصر منه: وعلى الجملة: فمن أقبل على الله؛ أقبل الله عليه، ومن أعرض عن الله؛ أعرض الله عنه، ومن تقرَّب إلى الله شبراً؛ تقرَّب منه ذراعاً، ومن تقرَّب منه ذراعاً؛ تقرب منه باعاً، ومن مشى إليه؛ جاءه هرولة، ومن نسب شيئاً إلى نفسه؛ فقد زلَّ، وضلَّ، ومَنْ نسب الأشياء إلى خالقها المنعم بها؛ كان في الزيادة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7] وقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 145]. وأفضل تُقرب به التذلُّل لعزة الله، والتخضُّع لعظمته، والإيحاش لهيبته، والتبري من الحول، والقوَّة إلا به، وهذا شأن العارفين، ومن خرج عنه؛ فهو طريق الجاهلين، أو الغافلين، وقد تمَّت الحكمة، وفرغ من القسمة، وسينزل كلُّ أحدٍ في دار قراره حكماً عدلاً وحقاً قصداً وفضلاً. وما ثبت في القدم لا يخلفه العدم، ولا تغيره الهمم بعد أن جرى به القلم، وقضاه العدل الحكم، فأين المهرب؟ وإلى أين المذهب؟ وقد عزَّ المطلب، ووقع ما يذهب. فيا خيبة من طلب ما لم تجر به الأقدار، ولم تكتبه الأقلام! يا لها من مصيبة ما أعظمها! وخيبةٍ ما أفحمها! أين المهرب من الله؟! وأين الذهاب عن الله؟! وأين الفرار من قدرة الله؟! بينما يرى أحدهم قريباً دانياً؛ إذ أصبح بعيداً نائياً، لا يملك لنفسه نفعاً، ولا ضراً، ولا خفضاً، ولا رفعاً[2].

وروحُ العزِّ بارزةٌ في كتابه هذا، فالقارئ له يشعر كأنَّ العزَّ أمامه يناقش الأقوال، ويرجح، ويستدلُّ، ويردُّ قول المخالف، كما يلحظ القارئ سعة علمه، وقوَّة جدله في بيان ما ترجَّح له، والكتاب يركِّز على الأحكام الفقهية يجمعها تحت قواعد أصولية، فهو من كتب الفقه، والأصول، ولكنَّه أحياناً يستطرد،

---

[1] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (189/2).

[2] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (13/1).

فيبحث أموراً في العقيدة، أو التصوف[1]. ويلاحظ في كتابه تكرار بعض الأمور في مواضع متعدِّدة، وقد اعتذر عن ذلك بقوله: وإنما أتيت بهذه الألفاظ في هذا الكتاب التي أكثرها مترادفات، وفي المعاني متلاقيات حرصاً على البيان، والتقرير في الجنان، كما تكررت المواعظ، والقصص، والأمر، والزجر، والوعد، والوعيد، والترغيب، والترهيب، وغير ذلك في القران. ولا شكَّ أنَّ في التكرير، والإكثار من التقرير في القلوب ما ليس في الإيجاز، والاختصار، ومن نظر إلى تكرير مواعظ القران، ووصاياه، ألفاها كذلك، وإنما كرَّرها الإله؛ لما علم فيها من إصلاح العباد، وهذا هو الغالب المعتاد، ولو قلت في حقِّ العباد: هو أن يجلب إليهم كلُّ خير، ويدفع عنهم كلُّ ضير؛ لكان ذلك جامعاً، عاماً، ولكن مالا يحصل به من البيان ما يحصل بالتكرير، وتنويع الأنواع. وكذلك لو قلت في حق الإله: هو أن يطيعهه، ولا يعصوه؛ لكان مختصراً عاماً، ولكن لا يفيده ما يفيده الإطناب، والإسهاب. وكذلك لو قلت في بعض حقوق المرء على نفسه: هو أن ينفعها في دينها، ودنياها، ولا يضرَّها في أولاها، وأخراها؛ لكان ذلك شاملاً لجميع حقوق المرء، وقد يظن بعض الجهلة الأغبياء: أنَّ الإيجاز، والاختصار أولى من الإسهاب، والإكثار، وهو مخطئ في ظنِّه؛ لما ذكرنا من التكرير الواقع في القران، والعادة شاهدةٌ بخطئه في ظنِّه، وما دلت العادة عليه، وأرشد القران إليه أولى ممَّا وقع للأغبياء الجاهلين؛ الذين لا يعرفون عادة الله، ولا يفهمون كتاب الله. وفَّقنا الله لاتباع كتابه، وفهم خطابه[2].

وخلاصة القول: أنَّ العز بحث في كتابه هذا مصالح الطاعات، والمعاملات، وسائر التصرفات؛ ليسعى العباد في تحصيلها. ومقاصد المخالفات؛ ليسعى العباد في درئها، وطريقته في ذلك: أنه يذكر القاعدة الأصولية في المصالح، والمفاسد، ويقرِّرها بالشرح، ثمَّ يوضِّحها بالأمثلة الفقهية الكثيرة المتنوعة. فهو من كتب الفقه؛ التي تربط الفروع الفقهية بالقواعد الأصولية[3].

ب ـ الإمام في بيان أدلة الأحكام:

وموضوع الكتاب بيان وجه دلالة آيات الأحكام على الأحكام من أمرٍ، ونهي، وتخييرٍ، وإباحةٍ. وهو من كتب أصول الفقه، وليس من كتب العقيدة. وقد قسم العز الأحكام إلى قسمين في هذا الكتاب،

---

[1] المصدر نفسه (140/1، 141).

[2] المصدر نفسه (161/1).

[3] العز بن عبد السلام حياته واثاره ومنهجه في التفسير ص142.

فقال: والأحكام ضربان: أحدهما: ما كان طلباً لاكتساب فعلٍ، أو تركه. والثاني: مالا طلب فيه، كالإباحة، ونصب الأسباب، والشرائط، والموانع، والصحة، والفساد، وضرب الآجال، وتقدير الأوقات، والحكم بالقضاء، والأداء، والتوسعة، والتضييق، والتعيين، والتخيير، ونحو ذلك من الأحكام الوضعية الخبرية، ثم قسم أدلة الأحكام إلى قسمين، فقال: ثُمَّ أدلة الأحكام ضربان. أحدهما: لفظي يدلُّ بالصيغة تارةً، وبلفظ الخبر أخرى. والثاني: معنوي، يدلُّ دلالة لزوم إمَّا بواسطة، وإمَّا بغير واسطة، فكل فعلٍ طلبه الشارع، أو أخبر عن طلبه، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو نصبه سبباً لخيرٍ عاجل، أو اجل؛ فهو مأمور به. وكلُّ فعل طلب الشارع تركه، أو أخبر: أنه طلب تركه، أو ذمَّه، أو ذم فاعله لأجله، أو نصبه سبباً لشرٍّ عاجل، أو اجل؛ فهو منهيٌّ عنه. وكلُّ فعلٍ خيَّر الشارع فيه مع استواء طرفيه، أو أخبر عن تلك التسوية؛ فهو مباح.

عرض هذا الكلام بعشرة فصول: الفصل الأول في الدلالة اللفظية: أما الصيغة فقوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31] فـ: ﴿خُذُوا﴾ أمر، و ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ إباحة، و ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ نهي ... إلخ.

والفصل الثاني في تقريب أنواع الأمر: كلُّ فعل كسبي عظَّمه الشرع، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبَّه، أو أحبَّ فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالاستقامة، أو البركة، أو الطيب، أو أقسم به، أو بفاعله، أو نصبه سبباً لمحبته، أو لثوابٍ عاجلٍ، أو اجلٍ، أو نصبه سبباً لذكره، أو لشكره، أو لهدايته، أو لإرضاء فاعله، أو لمغفرة ذنبه، أو لتكفيره، أو لقبوله، أو لنصرة فاعله، أو بشارته، أو وصف فاعله بالطيب، أو وصفه بكونه معروفاً، أو نفى الحزن، أو الخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولاية الله تعالى، أو وصف فاعله بالهداية، أو وصفه بصفة مدح، كالحياة، أو النور، والشفاء، أو دعا الله به الأنبياء؛ فهو مأمور به، فتذكر بعض الأمثلة لهذه الأنواع، وهي ثلاثةٌ وثلاثون مثالاً: المثال الأول: تعظيم الفعل وتوقيره: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10] و : ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 6]، وكذلك الإقسام بالفعل ضربٌ من وتوقيره: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]... إلخ. وهكذا استمرَّ في ذكر بقية الأمثلة، ويتخلَّل هذه الفصول فوائدُ كثيرةٌ.

ونلاحظ أنَّ هذا الكتاب يدلُّ على طول باع العزِّ في أصول الفقه، وسعة علمه بمقاصد كتاب الله تعالى، ومعرفته لدلالة الألفاظ، واختلافها، وتمكُّنه من اللغة العربية[1].

ج ـ مقاصد الصلاة:

وموضوعها فضل الصلاة، وبيان شرفها، وأنها أفضل العبادات بعد الإيمان بالله؛ لأنها قد اشتملت من أفعال القلوب، واللِّسان، والجوارح ندباً، وفرضاً ما لم تشتمل عليه عبادة أخرى. وفيها من الأعمال ما هو خاصٌّ لله تعالى، وخاصٌّ بالعبد، وخاصٌّ بالرسول (ﷺ) وبالمؤمنين، ثم فصَّل ذلك في سورة الفاتحة؛ التي تقرأ في الصلاة، وتكلَّم عن أفعال الصلاة؛ حتى ختمها[2]. وقد حظيت هذه الرسالة النفيسة بعناية السُّلطان الملك الأشرف، فكان يأمر بتلاوتها كلَّما دخل عليه أحدٌ من خواصّه، ونصح شمس الدين سبط ابنُ الجوزي الناس بها؛ وهو على المنبر[3]. قال ابن السبكي: قرئت عليه ـ أي: السلطان الملك الأشرف ـ «مقاصد الصلاة» في يوم ثلاث مرَّات، تقرأ عليه، وكُلَّما دخل عليه أحد من خواصِّه يقول للقارئ: اقرأ «مقاصد الصلاة» لابن عبد السلام؛ حتى يسمعها فلانٌ، ينفعه بسماعها.

ـ ومن كتب الشيخ: مقاصد الصوم، ومناسك الحج، وأحكام الجهاد وفضله، والغاية في اختفاء نهاية المطلب في دراية المذهب لإمام الحرمين الجويني، والجمع بين الحاوي والنهاية[4].

5 ـ الفتاوى: ومن أهم الكتب في هذا المجال:

أ ـ الفتاوى الموصلية.

ب ـ الفتاوى المصرية.

6 ـ التصوف:

ـ شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال:

---

(1) العز بن عبد السلام حياته وآثاره ص145.

(2) مقاصد الصلاة ص3.

(3) المصدر نفسه ص3.

(4) المصدر نفسه ص4.

وقد تكلَّم العزُّ في هذا الكتاب عن صفات الله، وكيفية توحيده، وتنزيهه، والوجه الأسلم في ذلك، وكيفية التخلُّق بصفات الله سبحانه وتعالى، وجاء هذا الكتاب في عشرين باباً، وفصولاً تمهيديَّةً[1] وقد تحدث في هذا الكتاب عن كيفية التخلُّق بالأسماء، والصفات، فقال:

أ ـ التخلق بالقدُّوس:

فقال الشيخ عز الدين: القدُّوس: هو الطاهر من كلِّ عيبٍ، ونقصان، وثمرة معرفته: التعظيم، والإجلال، والتخلُّق به بالتطهير من كلِّ حرامٍ، ومكروه، وشبهه، وفضل مباح شاغل عن مولاك[2].

ب ـ التخلق بالسَّلام:

«السَّلام»: إن أُخِذَ من تسليمه على عباده؛ فعليك بإفشاء السَّلام، فإنَّه من أفضل خِصال الإسلام، وإن أخذ من السلامة من العيوب؛ فهو كالقدُّوس، وإن أُخِذَ من الذي سَلِمَ عباده من ظُلمه؛ فليسلم الناس من غشمك، وظلمك، وضَرِّك، وشرِّكَ؛ فإن المسلم من سلم المسلمون من لسانه، ويده[3].

ج ـ التخلق بالإيمان:

«المؤمن»: إن أخذ من تصديق الله نفسه؛ فعليك بالإيمان بكلِّ ما أنزله الرحمن. وإن أخذ من أمنه العباد من ظلمه؛ فأظهر من بِرِّكَ، وخيرك ما يؤمن الناس من شرِّك، وضَيْرِك، وإنْ أخذ من خالق كلِّ أمنٍ؛ فأسع لعباد الله في كل أمنٍ[4].

د ـ التخلق بالهيمنة:

«المهيمن»: هو الشهيد، فإن أخذ من مشاهدته لعباده؛ فهو كالبصير، وثمرته كثمرته، والتخلُّق به كالتخلق به، وإن أخذ من شهادته لعباده، وعليهم في القيامة، فثمرة معرفته: خوفك، وحياؤك من شهادته عليك؛ إن عصيته. ورجاؤك شهادته لك؛ إن أطعته. والتخلُّق به أن تقوم بالشهادة في كلِّ ما

(1) العز بن عبد السلام حياته واثاره ومنهجه في التفسير ص 153.
(2) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال ص 37.
(3) المصدر نفسه ص 38.
(4) المصدر نفسه ص 39.

نفع وضرَّ، وساء وسرَّ؛ ولو على نفسك، أو الوالدين، والأقربين.

هـ التخلُّق بالعزَّة: «العزيز»:

إن أخِذَ من الغلبة؛ فهو كالقهار، وثمرة معرفته: الخوف. وإن أخذ من الامتناع من الضيم؛ فلا تخلُّق به إلا في بعض الضُّيوم، كَضَيْم الكُفَّار الفُجَّار. وإن أُخذ من الذي يَعِزُّ وجود مثله؛ فهو سالب للنظير، فلا تخلُّق به إلا بالتوحُّد بالطاعة، والعرفان على حسب الإمكان بالنسبة إلى أبناء الزمان[1].

و ـ التخلق بالجبر: «الجبَّار»:

إن أُخذ من جبرت العظم، والفقير: إذا أصلحتهما، فثمرة معرفته: رجاءُ جبره، وإصلاحه، والتخلق به، بأن تعامل عباده بكلِّ خير، وإصلاح تقدر عليه، أو تصل إليه. وإن أُخذ من العُلُوِّ؛ فهو كالعَليِّ، وثمرة معرفته كثمرات معارف جميع الصفات. وإن أخذ من الإجبار؛ فهو كالقهَّار[2].

ز ـ التخلُّق بالتكبر عن الرَّذائل: «المتكبر»:

إن أُخذ من تكبره عن النقائص؛ فهو كالقدُّوس، فتكبَّرْ عن كل خلق دنيء. وإن جعل شاملاً لجميع الأوصاف؛ فثمرة معرفته: الإجلال، والمهابة في جميع الأحوال الحادثات من سائر الصفات، وكذلك العظيم، والجليل، والعليِّ، والأعلى[3].

ح ـ التخلُّق بالحلم: «الحليم»:

هو الذي لا يعجِّل بعقوبة المذنبين، فاحلُم عن كلِّ مَنْ اذاك وظلمك، وسَبَّك، وشتمك، فإنَّ مولاك صبورٌ حليم، بَرٌّ كريم، يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

ط ـ التخلُّق بالصبر: «الصبور»:

هو الذي يعامل عباده معاملة الصابرين، فعليك بالصبر على أذيَّة المؤذين، وإساءة المسيئين، فإنَّ الله

(1) المصدر نفسه ص 39.
(2) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال ص 39.
(3) المصدر نفسه ص 39.

يحب الصَّابرين[1].

ي ـ التخلق بالإعزاز: «المُعِزُّ»:

خالق العِزِّ. وثمرة معرفته: الطمعُ في إعزازه بالمعارف، والطاعات. والتخلُّق به بإعزاز الدين، ومن تبعه من عباد الله المؤمنين.

ك ـ التخلُّق بالإذلال: «المذل»:

خالق الذُّل. وثمرة معرفته: خوف الإذلال بالمعاصي، والمخالفات. والمعاملة به بإذلال الباطل، وأشياعه، وإخمال العُدوان، وأتباعه[2].

ل ـ التخلُّق بالانتقام: «المنتقم»:

هو المعذِّب لما يشاء من عباده عدلاً. وثمرة معرفته: الخوف من انتقامه، والتخلق به لمن ابتُلي بشيءٍ من الويلات بالانتقام من الجُناة بالحدود، والتعزيزات، والعقوبات المشروعات[3].

م ـ التخلق بالعدل: «الحكم، العدل، المقسِطُ»:

هو المنصف في وصله، وقطعه، وبذله، ومنعه، وضَرِّه، ونفعه، وثمرة معرفته: خوف الظالم من عدله، ورجاء المظلوم لفضله، والتخلق به لمن ابتُلي في ذلك أن يَعْدِل فيما حكم به مسوّياً بين الفقير، والغنيّ، والضعيف، والقويّ، والقريب، والأجنبيّ، والعدوّ، والوليّ، وكذلك يعدل فيما يختص به من أهله، وعياله، ورقيقه، وأطفاله.

ن ـ التخلُّق باللُّطف: «اللطيف»:

إن أخذ من معرفة الدقائق؛ فثمرة معرفته: خوفُك، ومهابتُك، وحياؤك من معرفته بدقائق أحوالك، وخفايا أقوالك، وأعمالك؛ إذ لا يعزب عن خالق الأشياء مثقالُ ذرَّةٍ في الأرض، ولا في السماء. وإن

---

(1) المصدر نفسه ص 41.

(2) المصدر نفسه ص 39.

(3) المصدر نفسه ص 43.

أخذ من الرِّفق؛ فثمرةُ معرفته رجاءُ رفقهِ فيما ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] ولطفه فيما أمضاه. والتخلُّق به بالرفق بكلِّ من أُمرت به من عباد الله، فإنّ الله لطيف بعباده «وما كان الرفق في شيء؛ إلا زانه»[1].

س ـ التخلُّق بالشُّكر: «الشكور»:

إن أُخذ من ثنائه على عباده؛ فثمرةُ معرفته: رجاؤك الدُّخول في مدحته بطاعته، ومعرفته، والتخلُّق به بشكر مولاك، وشكر أبويْك، وشكر كلِّ من أحسن إليك[2]. «من لا يشكر الناسَ لا يشكر الله»[3].

ع ـ التخلُّق بالحفظ: «الحفيظ»:

إن أُخِذَ من العلم؛ فقد سبق. وإن أخذ من ضبط الأشياء، وحفظها؛ فَثمرةُ معرفتِهِ: رجاؤك حفظَه في أولاك، وأُخراك. والتخلُّق به بحفظ ما أمرت به من الطاعات، والأمانات؛ فإنَّ الله قد مدح الحافظين لحدوده، وبشَّرَهُم بإنجاز وعوده، فقال: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: 32] .

ف ـ التخلق بالإقاتة: «المُقيتُ»:

إن أخذ من القُدرة؛ فلا تخلُّق به. وإن أخذ من إقاتة الأقوات؛ فثمرة معرفته: رجاء الإقاتةِ، والإرزاق. والتخلُّق به بإقاته كلِّ محتاج تقدر على إقاتته من قريب، أو أجنبيٍّ، وضعيف، وقويٍّ، مقدِّماً لمن تلزمُك إقاتته الأقربَ، فالأقربَ[4]. «كفى بالمرء إثماً أن يُضَيِّع من يقوت»[5].

ص ـ التخلُّق بالحِكمةِ والحُكم: «الحكيم»:

إن أُخِذَ من الحكمة؛ فثمرة معرفته: المهابة، والإجلال، والتخلُّق به بمعرفة حُكم الكتاب، والسنة.وإن أُخذ من ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269] ، والإتقان، فثمرة معرفته: إجلال من عمَّت الأشياء حكمتُه، وحيَّرت الألبَّاء صنعتُه. والتخلُّق به بإتقان أحوالك، وأعمالك فيما يُصْلِحك

(1) مسلم رقم 2594.
(2) شجرة المعارف والأحوال ص45.
(3) سنن أبي داود رقم 4811.
(4) شجرة المعارف والأحوال ص45.
(5) مسلم رقم 996.

في عاجِلِك، ومالكِ.

*** التَّخلُّق بالقُوَّة:**

«القويُّ، المتين»: وثمرةُ معرفتهما: مهابته، وإجلاله، والاعتماد على قُوَّتِهِ. والتخلُّق به بأن تكون قوياً في دينك، متيناً في يقينك، مَليّاً بطاعة مولاك.

*** التَّخَلُّق بالتقديم والتأخير:**

«المقدم، والمؤخِر»: وثمرة معرفتهما: المهابة، والإجلال، والاعتماد عليه في تقديمه، وتأخيره، ورجاء أن يُقدِّمَك بطاعته، وخوف أن يؤخِّرك بمعصيته. والتخلُّق بهما بتقديم ما أمرت بتقديمه، وتأخير ما أمرت بتأخيره، بأن تقدِّم الأماثل على الأراذل، وأن تُقَدِّم أوجب الطاعات على واجبها، وأفضلها على فاضلها، ومضيَّقها على موسَّعها، وبأن تقدم القُربات، والطاعات إلى أوائل الأوقات، فإنَّ الله مدح الذين يسارعون في الخيرات[1].

*** التخلُّق بالبر:**

«البَرُّ»: هو المنعم. وثمرة معرفته: رجاءُ أنواع برِّه. والتخلق به بأن تبَرَّ كُلَّ من تقدر على برِّه بأحبِّ أموالك إليك، وأنفسِها لديك، فإنَّ مولاك يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[ال عمران: 92].

*** التخلُّق بالتوبة:**

«التّواب»: إن جُعِل بمعنى: الموفِّق للتوبة؛ فثمرة معرفته: رجاء توبته عليك. والتخلق به بأن تَحُثَّ المسيء على التوبة، وتحرِّضَهُ على الأَوْبَة. وإن جُعل بمعنى: قابل التوبة؛ فاقبل عذر من أساء إليك، وندم على جرأته عليك[2].

*** التخلُّق بمعنى «المغني»:**

والتخلُّق به بأن تُغني كلَّ محتاجٍ بما تقدر عليه من علم، وغيره، فتذكِّرَ الغافل، وتُعلِّمَ الجاهل، وتُقيم المائل،

(1) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص 47.

(2) المصدر نفسه ص 47.

وتُسيِّر العائل.

* التَّخلُّق بالضُّر، والنَّفع:

«الضار، والنافع»: ثمرةُ معرفتهما: خوف الضَّرر، ورجاءُ النفع. والتخلُّق بهما بنفع كلِّ من أُمرت بنفعه، وضرِّ كلّ من أُمرت بضرِّه، بحدٍّ، أو قتلٍ، أو غيره، والخلق عيال الله، فأحبهم إليه أنفعهم لعياله، فعليك ببذل المنافع لكلِّ دانٍ، وشاسعٍ[1].

* التَّخَلُّق بهداية الضال:

«النور، الهادي»: ثمرة معرفتهما: رجاؤك أن يُنوِّر جَنَانك بمعرفته، ويُزيِّن أركانك باثار هدايته. والتخلُّق بهما بأن تكون نوراً من أنوار الله، هادياً، إلى صراط الله[2]. «فوالله لأن يهدي الله بك رَجُلاً واحداً خيرٌ لك من أن تكون لك حُمُرُ النَّعَم»[3].

* التخلُّق بالقبض، والبسط:

«القابض، الباسط»: ثمرة معرفتهما: الخوف من قبض منافع الدُّنيا، والاخرة، ورجاء بسط الخيرات العاجلة، والاجلة. والتخلُّق بالبسط بأن تبسط برَّك، ومعروفك على كلِّ محتاجٍ؛ حتى على الدَّوابِّ، والكلاب، والذَّرِّ؛ إذ[4]«في كل كبد رطبة أجر»[5]. والتخلُّق بالقبض بأن تقبض عن كل أحدٍ ما ليس له أهلاً، من مالٍ، وولايةٍ، وعلمٍ، وحكمةٍ، فلا تؤتوا السُّفهاء أموالهم، فيتلفوها[6].

* التخلُّق ببذل الهبات:

«**الوهاب**»: ثمرة معرفته: رجاء أنواع هباته، وصلاته، والتخلُّق به بكثرة الهبات، والصِّلات مُقَدِّماً للاباء، والأُمَّهات، والبنين، والبنات.

---

(1) المصدر نفسه ص 48.
(2) المصدر نفسه ص 48.
(3) البخاري رقم 2942.
(4) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص 48.
(5) البخاري رقم 2363.
(6) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص49.

* التخلُّق بالجود، والكرم:

«الجواد، الكريم»: ثمرة معرفتهما: الطَّمعُ في اثار جودهِ، وكرمه: والتخلق بهما لمن أرادَ الوصول إليه بأن يَجُود بكلِّ ما يقدرُ عليه من مالٍ، وجاه، وعلمٍ، وحكمةٍ، وبرٍّ، ومساعدةٍ.

* التخلُّق بالإجابة:

«المجيب»: ثمرةُ معرفته: رجاء إجابةِ وعائك لعلمه بافتقارك إليه، واعتمادك عليه، وأنَّه سامعٌ لدعائك عالمٌ ببلائك، خابرٌ لسرَّائِك، وضرَّائِك. والتخلُّق به بإجابة مولاك فيما دعاك إليه من قُرُباته، وبإجابة كلِّ داعٍ إلى ما يُرضي مولاك في طاعاته، وعباداته[1].

* التخلُّق بالمجد:

«المجيد»: الذي كثر شرفه، وتمّ كماله، وجلاله في ذاته، وصفاته. وثمرة معرفته: المهابة، والإجلال. والتخلُّق به يمكن التخلق به مما سبق ذكره، فإنَّه شامل لجميع الصفات، كما شملَها: «ذو الجلال والإكرام»[2]. فهذه إشارات إلى كيفية التخلُّق بالصِّفات. ولا يحصل التخلُّق بالصفات إلا لمن واظب على التحديق إليها، والإقبال عليها. ولذلك أمرنا الله تعالى بإكثار ذكره لنُلابس ما يثمره ذكره من الأحوال، والأقوال، والأعمال[3].

ومن أفضل التخلُّقات أن تُحسِن إلى عباد الله بمثل ما أحسنَ به إليك، وأن تنعم عليهم بمثل ما أنعم به عليك. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ *﴾ [الضحى: 9] أي: عامِلْه بمثل عامَلناك، فإنَّا وجدناك يتيماً، فاويناك. ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ *﴾ [الضحى: 10] أي: عامل العائل السائل بمثل عاملناك، فإنا وجدناك عائلاً، فأغنيناك. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ *﴾ [الضحى: 11] أي: حدِّثهم بما أنعمنا به عليك من هدايتنا؛ ليهتدوا، فإنَّا وجدْناك ضالاً، فهديناك[4].

وقد جاء كتاب: «شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأفعال» في عشرين باباً، وعدَّة فصولٍ

---

[1] المصدر نفسه ص49.
[2] المصدر نفسه49.
[3] المصدر نفسه ص50.
[4] شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص 51.

تمهيديَّةً، وتكلَّم في الفصول التمهيديَّة عن القربات، واداب القران، وبيان فضائل الأعمال الظاهرة، والباطنة، وبيان رتب الوسائل، والأسباب، وثمرات المعارف، وفوائدها، وما يتفاضل به العباد. وهذه الفصول موجودة في مقدمة وخاتمة كتابه: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام». ثم تكلَّم في الباب الأول عن التخلُّق بصفات الرحمن على حسب الإمكان. أما الباب الثاني؛ فقد تكلَّم فيه عن كلِّ صفةٍ من صفات الربِّ مع ذكر دليلها، وثمرة معرفتها، وكيفية التخلُّق بها.

وفي الباب الرابع تكلَّم عمَّا يتعلَّق بالقلوب، والجوارح من الأحكام من المأمورات، والمنهيات، والمعفوَّات، والمباحات، وأما الباب الخامس؛ ففي المأمورات الباطنية، وفيه ستةٌ وخمسون ومئة فصل، تتعلَّق بكل ما أمر الله به من الأعمال الباطنة، كالتوكُّل على الله، والتعزُّز بالله، والتذلُّل لأولياء الله، وذكر الدليل على كل خُلقٍ من هذه الأخلاق من القران، والسنة. وأمَّا الباب السادس، فقد تكلَّم فيه عن المنهيات الباطنية كالجهل بما يجب تعلمه، وانشراح الصدر بالباطل، وفي محبَّة الكفار، والأنداد، وما شابه ذلك. وتكلَّم فيه في ثلاثةٍ ومئة فصلٍ. وأما الباب الثامن عشر ففي تعرُّف المصالح، والمفاسد، وما يُقدَّم فيها عند التعارض. وهذا تكرار لما هو موجود في أول كتاب: «قواعد الأحكام». وفي الباب التاسع عشر تكلَّم عن حسن العمل بالظنون الشرعية، وهو تكرار لما هو موجود في قواعده أيضاً. وختم الكتاب بالباب العشرين في الورع في العبادات، والمعاملات. انتهى باختصار[1].

هذه هي أهم مصنفات، ومؤلَّفات الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

7 . سمات التأليف عند الإمام عز الدين بن عبد السلام:

يتَّسم التأليف عند هذا الإمام بسماتٍ كثيرة، أبرزها:

أ . تنوع الموضوعات التي ألَّف فيها الإمام:

كما مرَّ معنا من ذكر مؤلفاته، ومن هذه المؤلفات ما هو مطول، كتفسير القران العظيم، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، ومنها ما هو مختصر، كمختصر النكت والعيون، ومختصر الرعاية لحقوق الله للمحاسبي، والقواعد الصغرى، ومنها ما هو على شكل رسائل، كالفَرق بين الإسلام والإيمان، وملحة الاعتقاد، ومنها ما هو فتاوى، كالفتاوى الموصليَّة، والمصريَّة.

[1] العز بن عبد السلام حياته واثاره ص53.

ب ـ تنوع القضايا التي يتعرَّض لها الإمام:

في المؤلف الواحد من مؤلفاته ـ غير الرسائل، والفتاوى ـ نجده أحياناً يتطرَّق لبحث مسائل تتعلَّق بالعقيدة، أو التصوُّف، أو اللغة، أو البلاغة. وهذا النهج في الاستطراد من الأمور التي اشتهر بها الإمام في تأليفه، وتدريسه.

ج ـ تكرير بعض الموضوعات في العديد من مؤلَّفاته:

ولعلَّ ذلك من باب التأكيد عليها لتستقرَّ في الأذهان، وترسخ؛ حتى في أضعف العقول، وقد يكون نابغاً من دربته في صحبة القران الكريم، فأخذ عنه التكرير؛ لما في التكرير من فوائد، كالتأكيد، وزيادة التنبيه، وتجديد العهد بالموضوع الأول إذا طال الكلام، وخُشي تناسيه[1]. وها هو الإمام يوضِّح لنا الغرض من ذلك، فيقول: حرصاً على البيان، والتقرير في الجنان، كما تكرَّرت المواعظ، والقصص، والأمر، والزجر، والوعد، والوعيد، والترغيب والترهيب، وغير ذلك في القران، ولا شكَّ: أنَّ في التكرير، والإكثار من التقرير في القلوب ما ليس في الإيجاز، والاختصار[2]. ولا يترك الإمام فرصة للمعترضين على أسلوبه هذا، فيرد عليهم قبل أن يواجهوه بأنه: يظن بعض الجهلة الأغبياء: أنَّ الإيجاز، والاختصار أولى من الإسهاب، والإكثار. وهو مخطئ في ظنِّه لما ذكرنا من التكرير في القران، والعادة شاهدةٌ بخطئه في ظنِّه، وما دلَّت العادة عليه، وأرشد القران إليه أولى مما وقع للأغبياء الجاهلين؛ الَّذين لا يعرفون عادة الله، ولا يفهمون كتاب الله[3]!.

د ـ اهتمامه البالغ بالمقصد العام والأساس للشريعة:

وهو جلب المصالح، ودرء المفاسد، والتدليل عليه، والإكثار من التمثيل له؛ حتى يكون دوماً حاضراً في أذهان المكلفين أثناء أقوالهم، وأفعالهم، وجميع تصرفاتهم، غير غافلين عنه في أيِّ لحظةٍ من لحظات أعمارهم، وهذه الروح ـ روح المقاصد ـ تسري في معظم كتبه مثل: «قواعد الأحكام» واضحة وضوح الشمس، وكذلك في: «شجرة المعارف» واضحة بما يعرضه من نماذج، وأمثلةٍ تكاد تكون في معظمها

---

(1) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص52.
(2) قواعد الأحكام (136/1).
(3) مقاصد الشريعة عند العز بن عبد السلام ص52.

وسائل لتحقيق مقاصد الشريعة الغرَّاء، وإقامتها في واقع الناس، ولا يقتصر تحقيق المصلحة عند الشيخ العزِّ على المسلم فقط، بل يتعدَّاه إلى الكافر، وحتى الحيوان[1]عملاً بقوله (ﷺ): «في كل كبدٍ رطبةٍ أجرٌ»[2]. قال الشيخ عز الدين: والتخلُّق بالبسط، أن تبسط برَّك، ومعروفك على كلِّ محتاجٍ؛ حتى على الدوابِّ، والكلاب، والذَّر[3]. وأفرد الباب السابع في كتابه: «شجرة المعارف» لبيان: أنَّ الإحسان: عبارة عن جلب مصالح الدَّارين، أو إحداهما، ودفع مفاسدهما، أو مفاسد إحداهما[4]. وتحدَّث فيه كذلك عن الإحسان القاصر، والمعتدي وبين في كتابه: «الإمام في بيان أدلة الأحكام»: أن الترغيب في الفعل، أو التحذير منه راجعٌ إلى المنافع، والمضار[5]، وهذه نظرة كلِّيةٌ منه ـ رحمه الله ـ إلى مقاصد الشريعة التي جاءت لتحكم بسلطان الدين الحياةَ البشرية تحقيقاً لمصالح العباد، ودرءاً للمفاسد عنهم[6].

هـ كتبه في متناول العالم والجاهل:

ولا تحتاج إلى كبير عناء في فهمها لسلاسة تعابيرها، وإشراقة عباراتها، وكثرة التمثيل فيها، مما يزيد معانيها توضيحاً، وبياناً. وبهذا يكون قد فاق الشاطبيَّ الذي جعل كتابه: «الموافقات» لفئة خاصة من الناس، كما ذكره في المقدمة[7].

و ـ توخِّي أسلوب الوعظ:

أحياناً مع تجنب السَّجع المتكلف رغم فُشوِّه في عصره، وقد تحاشاه الإمام حتى في خطبه.

ز ـ اعتماده في مؤلفاته على الكتاب والسنة

حرصاً منه على التلقِّي من النبع الصافي، وقلَّما نجده يعتمد على اراء مَنْ سبقه من العلماء اعتداداً بملكته العلمية المستقلَّة، وبلوغه رتبة الاجتهاد، وتحرُّره من قيود المذهبية الضيقة. وقد نصَّ بعض من ترجم له:

[1] المصدر نفسه ص 53.
[2] المصدر نفسه ص 53.
[3] المصدر نفسه ص 54.
[4] المصدر نفسه ص 54.
[5] المصدر نفسه ص 54.
[6] المصدر نفسه ص 54.
[7] المصدر نفسه ص54.

أنه كان في اخر عمره لا يتقيد بالمذاهب، بل اتَّسع نطاقه، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده[1]، وما ذلك إلا حرصاً منه على توحيد الأمَّة، واجتناب الخلافات.

ح ـ تمتاز كتبه بالطابع العلمي، والتعليقات الدقيقة على النصوص، والنظرات العميقة فيها، استوحاها الإمام من مقاصد الشريعة، وأهدافها النبيلة.

ط ـ استقلاليته في التأليف، وبروز شخصيته شخصيةً مميزةً في استقلالها، مبرّزةً في نبوغها، قويَّةً في تأثيرها في المجتمع. يظهر ذلك في نبذه للتقليد، ودعوته للاجتهاد. واستفادات العزِّ من غيره لم تذهب بشخصيته[2].

ولقد تبوأت مؤلفات عزِّ الدين بن عبد السلام مكانةً عالية، تجلَّت في اهتمام السابقين، واللاحقين بها. ومن مظاهر هذا الاهتمام: إشادة السابقين، واللاَّحقين بها، والحرص على نسخها في القديم، وطبعها بعد تحقيقها في عهدنا، وتدريس مؤلفاته، وتداولها، والعمل على شرحها، وكثيرٌ من العلماء من ينقل من مؤلَّفاته عند الاستدلال، مثل: ابن كثير، والشاطبي، وابن حجر، والمناويُّ، والسيوطيُّ، والفتوحيُّ[3]، وغيرهم كثير.

8 ـ الشيخ العز بن عبد السلام وتطوير الفقه السياسي والعلاقات الدولية:

رغم: أنَّ سلطان العلماء، الفقيه عز الدين بن عبد السلام لم يقصد عند كتابته لمؤلفاته تخصيصها للقانون الدولي، والعلاقات الدولية، إلا أنَّ مطالعتها تبين لنا انشغاله بطريقةٍ، أو بأخرى، بأمورٍ تدخل في إطارها سواءٌ تعلَّقت بها مباشرة، أو لكونها تمثِّل قواعد عامةٍ أصوليةٍ، تنطبق عليها أيضاً. وأهمُّ الوسائل التي عالجها ابن عبد السلام تتمثَّل في الأمور الاتية:

أ ـ السلطة الحاكمة في نظر عز الدين بن عبد السلام:

عالج الإمامُ عز الدين بن عبد السلام السلطة الحاكمة كعنصرٍ من عناصر الدَّولة الحديثة من زوايا متعدِّدة، أهمها:

---

(1) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص55.

(2) المصدر نفسه ص 55.

(3) المصدر نفسه ص 56 إلى 61.

. ضرورة توفر العدل لدى الحكام:

يقرِّر عزُّ الدين بن عبد السلام: أنَّ العادل من الأئمة، والولاة من الحكام أعظم أجراً من جميع الأنام بإجماع أهل الإسلام؛ لأنهم يقومون بجلب كلِّ صالحٍ كامل، ودرء كلّ فاسدٍ شامل[1]. واشتراط العدالة يعدُّ أمراً لازماً؛ لتكون وازعةً عن الخيانة، والتقصير في الولاية، ولأنَّ العدل ـ وهو التسويةُ لغةً مع إعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه ـ يعتبر عنصراً لازماً لحياة أيِّ مجتمعٍ. ومع ذلك يقرِّر العزُّ بن عبد السلام: أنَّ اشتراط العدالة في الإمامة الكبرى فيها اختلاف لغلبة الفسوق على الولاة[2]، فيقرِّر: ولو شرطناها لتعطَّلت التصرفات الموافقة للحقِّ في تولية من يولُّونه من القضاء، والولاة، والسعاة، وأمر الغزوات، وأخذ ما يأخذونه، وبذل ما يعطونه، وقبض الصَّدقات، والأموال العامَّة، والخاصَّة المندرجة تحت ولايتهم، فلم تشترط العدالة في تصرفاتهم الموافقة للحقِّ؛ لما في اشتراطها من الضَّرر العام، وفوات هذه المصالح أقبح من فوات عدالة السُّلطان[3].

. تولية الصَّالح، أو الأصلح (مع عزل المريب):

يعتبر الحاكم رأس الدولة، أو الإقليم الذي يحكمه، وبالتالي بات من الواجب أن يكون أصلح من تتوافر فيه الشروط اللازمة للقيام بهذه المهمَّة، لذلك يرى سلطان العلماء: أنَّ على الإمام أن يعزل الحاكم إذا أرابه منه شيء؛ لما في إبقاء المريب من المفسدة؛ إذ لا يصلح في تقرير المريب على ولاية خاصَّة؛ لما يخشى من خيانته فيها، وإذا سلم تكن هناك ريبةٌ، ووجب التفرقة بين فروض ثلاثة:

الأول: أن يعزله بمن هو دونه، ففي هذا الفرض لا يجوز عزله؛ لما فيه من تفويت المسلمين المصلحة الحاصلة من جهة فضله على غيره، ولأنه ليس للإمام تفويت المصالح من غير معارض.

الثاني: أن يعزله بمن هو أفضل منه، وهذا جائزٌ؛ لما فيه من تقديم الأصلح على الصَّالح، ولتحصيل المصلحة الصَّالحة للمسلمين.

الثالث: أن يعزله بمن يساويه. وهذا جائز في نظر البعض؛ لما له من حقِّ الاختيار عند تساوي المصالح، ولما له من حق التخير بينهما في ابتداء الولاية. بينما يرى اخرون عدم جوازه لما فيه من كسر العزل، وعاره بخلاف ابتداء الولاية[4].

---

[1] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (143/1).
[2] كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي
[3] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (79/1).
[4] المصدر نفسه (81/1).

. التصرفات الصادرة من غير ولاية صحيحة:

تعرَّض العزُّ بن عبد السلام كذلك للتصرفات التي قد تصدر من أشخاص ليس لهم الحق في القيام بها، ولكن نظراً لصدورها في ظروفٍ معيَّنةٍ؛ فإنها تعتبر صحيحةً[1]، وقد تعرض لصنفين من التصرُّفات هما:

. تصرفات الأئمة البغاة:

تعتبر هذه التصرفات نافذةً مع القطع بأنه لا ولاية لهم، وإنَّما نفذت تصرفاتهم لضرورة الرعايا، كما أنه إذا نفذ ذلك مع ندرة البغي، فأولى أن ينفذ تصرف الولاة، والأئمة مع غلبة الفجور عليهم، وأنَّه لا انفكاك للناس عنهم[2].

. تصرف الاحاد في الأموال العامة عند جور الأئمة:

إذا كانت القاعدة العامة تقضي بأن الأموال العامة لا يتصرَّف فيها إلا الأئمة، ونوابهم؛ فإنه إذا تعذر قيامهم بذلك، وأمكن القيام بها بواسطة فرد، أو أكثر؛ جاز ذلك، على أن ذلك مشروط بصرفه إلى مستحقيه على الوجه الذي يجب على الإمام العادل أن يصرفه فيه: بأن يقدم الأهمَّ، فالأهم، والأصلحَ فالأصلح، فيصرف كلَّ مالٍ خاصٍّ في جهاته أهمِّها فأهمِّها، ويصرف ما وجد من أموال المصالح العامة في مصارفها أصلحها، فأصلحها لأنا لو منعنا ذلك؛ لفاتت مصالح صرف تلك الأموال إلى مستحقِّيها، فكان تحصيل هذه المصالح، ودرء هذه المفاسد أولى من تعطيلها. وإذا جوز الشرع لمن جحد حقَّه أن يأخذ من مال جاحده، إذا ظفر به؛ إن كان من جنسه، وأن يأخذه، ويبيعه؛ إن كان من غير جنسه، مع أن هذه مصلحة خاصَّةٌ؛ فجواز ما ذكرناه مع عمومه أولى[3].

ب . بعض القواعد التي يمكن تطبيقها في إطار العلاقات الدَّولية عند الإمام عز الدين بن عبد السلام:

تتميز العلاقات الدولية الحالية بصفتها الاجتماعية، وبترابط، وتداخل أواصر العلاقات الموجودة بين مختلف أشخاص القانون الدولي، والعلاقات الدولية، أو السياسية الخارجية لأيِّ بلدٍ معيَّن؛ تنبع أو يجب أن تنبع من المصلحة العليا لشعبه مع مراعاة ظروف البيئة؛ التي يتمُّ في داخلها اتخاذ القرار، وسنجد .

(1) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية (279/13).
(2) المصدر نفسه (379/13).
(3) المصدر نفسه (380/13).

بإذن الله ـ بأنَّ الإمام عز الدين بن عبد السلام قد عالج بطريقةٍ عامَّةٍ ما قلناه، ويمكن أن نركز فكره حول ثلاثة أفكار أساسية، نطلق عليها المسمَّيات الاتية: ترابط العلاقات الدَّولية، ونظرية تدرُّج العلاقات الدولية، وأخيراً نظرية الضرورة.

ـ ترابط العلاقات الدولية:

تقوم العلاقات الدولية المعاصرة على أساس فكرة الترابط، أو التداخل، أو التشابك، والتي يرجع تفسيرها أساساً إلى حاجة أفراد المجتمع الدولي بعضهم لبعض، وإذا كان العزُّ بن عبد السلام لم يتحدَّث عن المجتمع الدولي صراحةً؛ إلا أنَّ ذلك يمكن استنباطه ممَّا قاله في الفقرة الاتية: اعلم: أنَّ الله تعالى خلق الخلق، وأحوج بعضهم إلى بعض؛ لتقوم كلُّ طائفةٍ بمصالح غيرها، فيقوم بمصالح الأصاغر الأكابر، والأصاغر بمصالح الأكابر، والأغنياء بمصالح الفقراء، والفقراء بمصالح الأغنياء، والنظراء بمصالح النظراء، والنِّساء بمصالح الرِّجال، والرِّجال بمصالح النساء، والرَّقيق بمصالح السادات، والسَّادات بمصالح الرقيق، وهذا القيام منقسم إلى جلب مصالح الدارين، أو أحدهما، أو إلى دفع مفاسدهما، أو أحدهما[1].

ـ ضرورة تدرج العلاقات الدولية لبلد ما:

نحن نعتقد: أنَّ العلاقات الدولية إذا كانت تتسم حالياً بصفة الشُّمولية، أو الكلِّية إلا أنها ـ بالنسبة لبلدٍ معيَّنٍ ـ يجب أن يتمَّ تخطيطها في إطار ظروف هذا البلد، وعلى ضوء إمكانياته، ومقدَّراته، والنتيجة اللازمة، والمترتبة على ذلك المفهوم هو منع التهوُّر، أو التخبُّط في رسم، أو اتخاذ سياسةٍ خارجيَّةٍ معيَّنةٍ، ولعلَّ ذلك ما قصده الإمام ابن عبد السلام حينما قرر: أنَّه إذا اجتمعت المصالح، فإن أمكن تحصيلها؛ حصَّلناها، وإن تعذَّر تحصيلها حصَّلنا الأصلح فالأصلح، والأفضل فالأفضل [2]. ويضرب لذلك أمثلةً دوليةً، من بينها:

ـ أنَّ الجهاد لو وجب في الابتداء؛ لأباد الكفرةُ أهلَ الإسلام؛ لقلَّة المؤمنين، وكثرة الكافرين.

ـ أنَّ القتال في الشهر الحرام لو أُحِلَّ في ابتداء الإسلام؛ لنفروا منه لشدَّة استعظامهم لذلك. وكذلك القتال في البلد الحرام، كلُّ ذلك دلالةٌ قاطعةٌ على أنه لا يجوز تقرير شيءٍ، أو اتخاذ قرارٍ إلا على ضوء البيئة التي سيطبق فيها، ومع مراعاة كافة الظروف، والمواقف، وأنَّ اتخاذ قرار في إطار العلاقات الدولية قد تُحتِّم الظروف ضرورة تدرُّجه[3].

---

(1) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (68/2).
(2) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (381/13).
(3) المصدر نفسه (381/13).

. نظرية الضرورة:

تعتبر حالة الضرورة من المبادئ المسلَّم بها في إطار النظرية العامَّة للقانون، وهي مبدأ مطبَّق في مختلف النظم القانونية، بما في ذلك النظام القانوني الدولي[1]، فالضرورات مناسبة لإباحة المحظورات جلباً لمصالحها، ذلك: أنه إذا اجتمعت المفاسد مع تعذُّر درئها جميعاً؛ درأنا الأفسد فالأفسد، والأرذل فالأرذل، ويضرب الإمام عز الدين بن عبد السلام مثالاً لذلك بما جرى في إطار العلاقات الدولية أيام الرسول (ﷺ) بخصوص صلح الحديبية: فإن قيل لم التزم في صلح الحديبية إدخال الضيم على المسلمين، وإعطاء الدنيَّة في الدين؟ قلنا: التزام ذلك دفعاً لمفاسد عظيمةٍ، وهي قتل المؤمنين، والمؤمنات، فاقتضت المصلحة إيقاع الصُّلح على أن يُرَدَّ إلى الكفَّار مَنْ جاء منهم إلى المؤمنين، وذلك أهونُ مِنْ قتل المؤمنين الخاملين[2].

ج . أسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم مع الأعداء في تقدير الإمام عز الدين بن عبد السلام:

تحدَّث الإمام عز الدين بن عبد السلام عن بعض الأسس؛ التي تحكم العلاقة بين المسلمين، وغيرهم. وأهمُّ هذه الأسس ما يلي:

. الجزية:

اتَّهم كثيرٌ من غير المسلمين الإسلام بأنَّه دينٌ يهدف إلى تقرير أمورٍ ماليَّةٍ على غير المسلمين، تعتبر وسيلةً لإجبارهم على الدُّخول فيه؛ ومن بين هذه الوسائل الجزية التي يدفعها أهل الكتب السماوية. ويعتبر ما قال الإمام ابن عبد السلام في هذا الصَّدد رداً حاسماً: ولا تؤخذ الجزية عوضاً عن تقريرهم على الكفر، وشتم الإسلام ونسبته إلى مالا يليق بعظمته. ومن ذهب إلى ذلك؛ فقد أبعد، وإنَّما الجزية مأخوذة عوضاً عن حقن دمائهم، وصيانة أموالهم، وحرمهم، وأطفالهم، مع الذبِّ عنهم؛ إن كانوا في ديارنا. وليست مأخوذةً عن سكن دار الإسلام؛ إذ يجوز عقد الذمَّة مع تقريرهم في ديارهم [3].

. مراعاة القواعد الإنسانية:

تلعب قواعد القانون الدولي الإنساني الان دوراً هاماً في إطار المنازعات المسلحة باعتبار: أنها تهدف

---

(1) المصدر نفسه (382/13).

(2) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (95/1).

(3) المصدر نفسه (110/1).

إلى تجنيب المشتركين فيها، أو الذين قد يتورطون بطريقةٍ، أو بأخرى في ارتكابها، أو يتعرَّضون لويلاتها، ولمظاهر المعاناة غير المفيدة باعتبار أنهم في النهاية كائناتٌ بشريةٌ يجب احترام ادميتها، لذلك يقرر مثلاً الإمام عز الدين بن عبد السلام: إذا اختلط قتلى المسلمين بقتلى الكفار؛ فإنا نغسل الجميع، ونكفِّنهم توسلاً إلى إقامة حقوق المسلمين من الغسل، والدفن، والتكفين. وكذلك إذا تعارضت شهادتان في كفر الميت، وإسلامه؛ فإنا نغسِّله، ونكفنه، ونصلِّي عليه، وندفنه في قبور المسلمين[1].

ويضيف الإمام في موضعٍ اخر عدمَ جواز قتل غير المشاركين في الحرب إلا إذا دعت إلى ذلك ضرورةٌ، فيقول: قتل الكفار من النساء، والمجانين، والأطفال مفسدةٌ؛ لكنه يجوز إذا تترَّس بهم الكفار؛ بحيث لا يمكن دفعهم إلا بقتلهم[2].

. أسرى الحرب:

غالباً ما يترتَّب على الحرب وقوع أسرى من الجانبين، أو على الأقل من جانبٍ واحد، ودائماً ما تبذل محاولات من أطراف محايدة لحمل الأطراف المتحاربة على إجراء عمليات تبادل الأسرى بالعدد، وفي المكان المتفق عليه، وللإمام عز الدين بن عبد السلام رأي في هذا الصدد؛ إذ يقول: وقد تجوز المعاونة على الإثم، والعدوان، والفسوق، والعصيان لا من جهة كونه معصيةً، بل من جهة كونه وسيلةً إلى مصلحة. وله أمثلة، منها: ما يبذل في افتكاك الأسارى، فإنَّه حرامٌ على اخذيه، مباحٌ لباذليه. وليس هذا على التحقيق معونةً على الإثم، والعدوان، والفسوق، والعصيان، وإنما هو إعانةٌ على درء المفاسد، فكانت المعاونة على الإثم، والعدوان، والفسوق، والعصيان فيها تبعاً لا مقصوداً[3].

د . استيلاء الأعداء على إقليم من أقاليم المسلمين:

. أثر تصرفات سلطة الاحتلال في مجال الإدارة والقضاء:

من اثار الحرب المحتملة قيام أحد الطرفين بالاستيلاء على جزءٍ من إقليم الطرف الاخر، وقد يقوم المحتلُّ بإجراء تغييرات في الإدارة، والقضاء، والتشريع بما يتَّفق ونزعته الاحتلالية، وبما يضمن له الاستقرار والولاء، وقد عالج الإمام عز الدين أحد المظاهر بقوله: ولو استولى الكفار على إقليم عظيم، فولوا القضاء

(1) المصدر نفسه (20/2).

(2) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (384/13).

(3) المصدر نفسه (384/13) نقلاً عن قواعد الأحكام في مصالح الأنام.

لمن يقوم بمصالح المسلمين العامة، فالذي يظهر إنفاذ ذلك كله جلباً للمصالح العامة، ودفعاً للمفاسد الشاملة؛ إذ يبعد عن رحمة الشرع، ورعايته لمصالح عباده تعطيل المصالح العامة، وتحمل المفاسد الشاملة لفوات الكمال فيمن يتعاطى توليتها لمن هو أهلٌ لها، وفي ذلك احتمالٌ بعيد[1].

. موقف ابن عبد السلام من احتلال إقليم مسلم:

قَدِمَ العز بن عبد السلام سلطان العلماء سنة 639هـ إلى مصر من دمشق بسبب أنَّ سلطانها الصالح إسماعيل استعان بالفرنج، وأعطاهم مدينة صيدا، وقلعة الشقيف، فأنكر عليه الشيخ عز الدين، وترك الدعاء، له في الخطبة، وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمر المالكي، فغضب منهما السلطان، فخرجا إلى الدِّيار المصرية، فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين؛ وهو في الطريق بعض أعوانه، وأمره أن يتلطَّف به في العودة إلى دمشق. فاجتمع به، ولاينه، وقال له: ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسُّلطان، وتقبِّل يده لا غير! فقال له الشيخ: يا مسكين! ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده! يا قوم! أنتم في وادٍ، وأنا في واد! والحمد لله الذي عافانا ممَّا ابتلاكم به[2]!

. ضرورة الانشغال بالأعداء وعدم محاربة المسلمين:

هناك موقف اخر مشهور للعز بن عبد السلام يتمثَّل في المبدأ القاضي بضرورة: الانشغال بالأعداء، ومحاربتهم بدلاً من الالتفات للمسلمين، ومعاداتهم، ذلك: أنه لما مرض الملك الأشرف من بني أيوب؛ أرسل للشيخ يتحلَّل، ويسأله أن يعوده، ويوصيه بما ينفعه، فأنعم الشيخ، وكان السلطان قد وقعت بينه وبين أخيه الكامل وحشة، فأمر وهو في مرضه أن ينصب دهليزه صوب مصر: فقال الشيخ للسلطان: إن الملك الكامل أخوك الكبير، ورحمُك، وأنت مشهور بالفتوحات، والتتار قد خاضوا بلاد المسلمين، فتترك ضرب دهليزك إلى أعداء الله، وأعداء الإسلام، وتضربه صوب أخيك؟ غيِّر الحال، ولا تقطع رحمك، وانو مع الله نصر دينه، وإعزاز كلمته، فإن منَّ الله بعافيتك؛ رجونا من الله إدالتك على الكفار، وكانت في ميزانك هذه الحسنة العظيمة، وإن قضى الله بانتقالك؛ كان السلطان في خفارة نيتك. فقال: جزاك الله خيراً عن إرشادك، ونصيحتك! وأمر بنقل دهليزه صوب التتار[3].

[1] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (385/13).
[2] كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولية (385/13).
[3] المصدر نفسه (387/13).

هـ حقوق الإنسان عند الإمام ابن عبد السلام:

تعرَّض الإمام ابن عبد السلام للعديد من مسائل حقوق الإنسان، يمكن أن نجمعها في أمرين: مسؤولية السلطة الحاكمة، وأنواع حقوق الإنسان.

. مسؤولية السلطة الحاكمة:

يقول ابن عبد السلام: وأما ولاة السوء، وقضاة الجور؛ فمن أعظم الناس وزراً، وأحطهم درجةً عند الله؛ لعموم ما يجري على أيديهم من جلب المفاسد العظام، ودرء المصالح الجسام. وإنَّ أحدهم ليقول الكلمة الواحدة، فيأثم بها ألف إثم، وأكثر على حسب عموم مفسدة تلك الكلمة، وعلى حسب ما يدفعه بتلك من مصالح المسلمين، فيا لها من صفقة خاسرة، وتجارة بائرة[1]! ويشير ابن عبد السلام إلى أمرٍ هام، يعالج نفوس كثيرٍ من الحكام، وهو وقوعهم في المظالم، فيحثُّهم على فعل العدل، وترك الظلم؛ حيث إنَّ ما فوتوه من الأموال مضمونٌ عليهم في الدِّين: «فإن فنيت حسناتهم؛ طرح عليهم من سيئات مَنْ ظلموه». وكذلك الحكم في الدماء، والأبضاع، والأعراض، وفيما أخروه من الحقوق التي يجب تقديمها، أو قدموه من الحقوق التي يجب تأخيرها، فقد قال رب العالمين: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾.

. تقسيمات الحقوق والأمور التي تتعلق بها:

يقسم ابن عبد السلام حقوق الربِّ، وحقوق العباد أقسامٌ: أحدها متساوٍ، وثانيها متفاوت، والثالث مختلفٌ في تساويها، وتفاوتها.

. فقد تطرَّق إلى تقديم حقوق بعض العباد على بعض لترجيح التقديم على التأخير في جلب المصالح، ودرء المفاسد. مثال ذلك: تقديم نفقة زوجه، وكسوتها، وسكناها على نفقة أصوله، وكسوتهم، وسكناهم

. وأشار ابن عبد السلام أيضاً إلى حالة التساوي في حقوق العباد، فيتخيَّر فيه المكلف جمعاً بين المصلحتين، ودفعاً للضررين، مثال ذلك: التسوية بين الزَّوجات في القَسْم، والنفقات. وتسوية الحكام بين الخصوم في المحاكمات[2].

---

[1] المصدر نفسه (387/13).

[2] المصدر نفسه (387/13/13) نقلاً عن قواعد الأحكام.

ـ وأشار كذلك إلى تقديم حقوق الربِّ على حقوق عباده إحساناً إليهم في أخراهم. مثال ذلك: التغرير بالنفوس، والأعضاء في قتال مَنْ يجب قتاله.

ـ وأشار أيضاً إلى تقديم بعض حقوق العباد على حقوق الربِّ رفقاً بهم في دنياهم، كالأعذار المجوّزِة لقطع الصَّلوات، ولترك الجهاد[1].

وتعرَّض ابن عبد السلام لأمورٍ أخرى تتعلّق بحقوق الإنسان، منها:

ـ قاعدة لا يجوز تعطيل الإنسان عن منافعه، وأشغاله إلا ما استثني، كاستدعاء الحاكم للمدَّعي بناء على طلب خصمه، أو استدعائه للشهود[2].

ـ ويقول ابن عبد السلام: إنما شرعت القرعة عند تساوي الحقوق دفعاً للضغائن، والأحقاد، وللرِّضا، بما جرت به الأقدار، وقضاء الملك الجبَّار[3]، وتعليقاً على قوله تعالى: يقول ابن عبد السلام: وإذا كان هذا في حقوق اليتيم؛ فأولى أن يثبت في حقوق عامَّة المسلمين فيما يتصرف فيه دائماً من الأموال العامة؛ لأن اعتناء الشرع بالمصالح العامة أوفر، وأكثر من اعتنائه بالمصالح الخاصَّة[4].

ـ قواعد ومبادئ أخرى قررها ابن عبد السلام:

يمكن إيجاز بعض القواعد، والمبادئ التي قرَّرها ابن عبد السلام، والتي يمكن الاستفادة منها في مجال القانون الدولي، والعلاقات الدَّولية، كما يلي:

ـ قاعدة: وأما مصالح الدنيا، وأسبابها، ومفاسدها؛ فمعروفةٌ بالضرورات، والتجارب، والعادات، والظنون المعتبرات، فإن خفي شيءٌ من ذلك؛ طلب من أدلَّته، ومن أراد أن يعرف المتناسبات، والمصالح، والمفاسد: راجحها، ومرجوحها؛ فليعرض ذلك على عقله بتقدير أنَّ المشرع لم يَرِدْ به، ثم يبني عليه الأحكام، فلا يكاد حكمٌ منها يخرج عن ذلك، وبذلك تعرف حسن الأعمال، وقبحها.

ـ الإمام والحكم: إذ أتلف شيئاً من النفوس، أو الأموال في تصرُّفها للمصالح فإنه يجب على بيت المال دون الحاكم، والإمام، لأنهما لما تصرفا للمسلمين؛ صار كأنَّ المسلمين هم المتلفون، ولأنَّ ذلك يكثر في حقهما، فيتضررون به.

---

[1] المصدر نفسه (387/13/13) نقلاً عن قواعد الأحكام

[2] المصدر نفسه (387/13).

[3] كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (389/13).

[4] المصدر نفسه (390/13) نقلاً عن قواعد الأحكام (89/2).

. ويرى ابن عبد السلام: أنَّ من أمثلة المشتملة على المصالح، والمفاسد مع رجحان مصالحها على مفاسدها وجوب إجارة رسل الكفَّار مع كفرهم، لمصلحة ما يتعلَّق بالرسالة من المصالحة الخاصَّة والعامة.

ولعلَّ ابن عبد السلام يكون ـ بهذه القاعدة الأخيرة ـ قد أشار إلى مبدأ حصانة وحرمة السفراء، والمبعوثين الدبلوماسيِّين، وهو مبدأ استقرَّ عليه القانون الدولي المعاصر[1].

هذه بعض الخطوط العريضة فيما يتعلَّق في جهد الشيخ عز الدين في تطوير قواعد القانون الدَّولي، والعلاقات الدَّولية.

سابعاً: أعماله في التدريس، والإفتاء، والقضاء، والخطابة:

1 . في التدريس:

قام العزُّ بن عبد السلام بالتدريس في مدارس دمشق، ومساجدها، وهو أوَّل عملٍ قام به العزُّ، رحمه الله! وأوَّل مدرسة عمل بها هي المدرسة العزيزية، حيث كان للعزِّ مجلسٌ فيها، يدرِّس فيه العلوم الشَّرعية، كما كان يدرس فيها الامدي (ت 631هـ) واستمرَّ العزُّ في التدريس مع أستاذه الامدي، وبعده، كما درَّس في المدرسة الشبلية، ثم تولَّى التدريس في الزاوية الغزالية، وهي مكانٌ صغيرٌ، بجانب الجامع الأموي من جهة الغرب، وسمِّيت بذلك نسبة إلى الإمام الغزالي (ت 505هـ) كان يعتكف فيها، ثم استعملت للعبادة، والتدريس، والأذكار، وتولى العزُّ التدريس فيها بعد وفاة شيخها جمال الدين الدولعي سنة 635هـ[2]، ومع علمه، ونبوغه، وذيوع صيته، وبروزه على الأقران؛ حتى إنه كان مفتياً قبل هذا التاريخ، والتدريس؛ مرحلةٌ متقدِّمة على الإفتاء، فلابدَّ أن يكون العزُّ قام بالتدريس قبل تولية الملك الكامل له في سنة 635هـ، وبعد هجرته إلى مصر ولاه السلطان التدريس في الصَّالحية (بالقاهرة) وكانت مدرسةً كبيرةً خُصِّصت لتدريس المذاهب الأربعة، فأسند تدريس المذهب الشَّافعيِّ للإمام العز، رحمه الله! فبقي إلى أن توفي 660هـ، ولم يكتف بالتدريس فيها، بل عقد حلقات العلم في المساجد وقصده الطلاب من الافاق، وتخرج عليه في هذه الفترة معظم تلامذته الذين برُّوا الأقران، كابن دقيق العيد، والدمياطي، وغيرهم ممَّن سبق ذكرهم.

---

[1] المصدر نفسه (391/13).

[2] طبقات السبكي (242/8) وفتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص131.

وقد عرض عليه الملك الظاهر بيبرس بعد بنائه المدرسة الظاهرية أن يتولى أمر التدريس فيها إضافةً إلى تدريسه في الصَّالحية، فأبى، وقال: إنَّ معي تدريس الصالحية، فلا أُضيِّق على غيري! وسأله الملك أن يشترط في وقفها أن يكون التدريس لأولاده، فقال: إنَّ في هذا البلد من هو أحقُّ منهم. فقال: لابدَّ أن يكون لهم فيها وظيفة بالشَّرط، ففكَّر، وقال: إن كان لابدَّ؛ فتكون الإمامة، فشرط لهم[1]، وقد عرض عليه الظاهر بيبرس أيضاً أن يعين مناصبه لمن يريد من أولاده، فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز[2]، وكان أحد تلاميذه. فضرب مثلاً نادراً في الحرص على الدِّين، والورع، وعدم إيثاره أولاده على مصلحة المسلمين، فأسند الأمر إلى أهله، ومن هو أهلُه، وكان العزُّ ـ رحمه الله ـ مجيداً في تدريسه، جادّاً في عطائه، وقد أثنى أبو الحسن الشاذلي على مجلس العزِّ بن عبد السلام، فقال: ... ما على الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عزِّ الدين بن عبد السلام[3]. وكان مهيباً، وقوراً، مع حسن محاضرة، وبشاشةٍ، لا يهتم بمظهرٍ، ولا ملبسٍ، فقد كان يلبس قبعة لباد، ويحضر فيه المواكب السُّلطانية، وأحياناً يلبس العمامة دون تكلُّفٍ، أو تصنُّع[4]، ويعطي درسه مسترسلاً. وهو أول من درَّس التفسير في حلقاته، كما درَّس الفقه، والأصول، وغيرها من العلوم الشرعية، وفاق أقرانه؛ حتى قال ابن الحاجب أحد أقرانه: ابن عبد السلام أفقه من الغزالي[5].

2 . الإفتاء:

لقد مارس الإمام العزُّ الإفتاء بدون تعيين من ملكٍ، أو سلطانٍ، بل إن هذا المنصب الرفيع لم يكن يخضع لمراسيم الملوك، وإنما هو مهمَّةٌ يقوم بها العالم إذا رأى نفسه أهلاً لذلك، وقال العزُّ ـ رحمه الله ـ في أيام محنته مع الملك الأشرف: أما الفتيا؛ فإني كنت والله متبرماً منها، وأكرهها، وأعتقد أنَّ المفتي على شفير جهنم، ولولا أني أعتقد: أنَّ الله أوجبها عليَّ لتعيُّنها عليَّ في هذا الزمان؛ لما كنت تلوَّثت بها[6]، والان قد عذرني الحقُّ، وسقط عني الوجوب، وتخلَّصت ذمتي، ولله الحمد، والمنة! كان هذا الكلام قاله

---

(1) طبقات الفقهاء للأسنوي (197/2).

(2) فوات الوفيات (596/1).

(3) حسن المحاضرة (127/1) وفتاوى عز الدين بن عبد السلام ص 129.

(4) طبقات السبكي (214/8) وفتاوى عز الدين بن عبد السلام ص 129.

(5) طبقات السبكي (214/8) والمصدر نفسه ص129.

(6) طبقات السبكي (237/8) والمصدر نفسه ص129.

العز لمن جاء من طرف السلطان يبلغه بعزله عن الإفتاء. وزاد العزُّ، فقال لرسول السُّلطان: يا غرز، من سعادتي لزومي لبيتي، وتفرغي لعبادة ربي، والسعيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته، واشتغل بطاعة الله تعالى، وهذا تسليكٌ من الحقِّ، وهديَّةٌ من الله ـ تعالى ـ إليَّ أجراها على يد السُّلطان؛ وهو غضبان، وأنا بها فَرِحٌ! والله يا غرز لو كانت عندي خلعةٌ تصلح لك على هذه الرسالة المتضمِّنة لهذه البشارة؛ لخلعت عليك، ونحن على الفتوح، خذ هذه السجادة صلِّ عليها! فَقبلها، وقبَّلها، وودَّعه، وانصرف إلى السُّلطان، وذكر له ما جرى بينه، وبينه، فقال لمن حضره: قولوا لي ما أفعل به، هذا رجل يرى العقوبة نعمةً، اتركوه، بيننا وبينه الله[1]! وبقي العزُّ على تلك الحال ثلاثة أيام، ثم إنَّ الشيخ العلامة جمال الدين الحصري شيخ الحنفية في زمانة ذهب إلى الأشرف، فقال له: إيش بينك وبين ابن عبد السلام؟ هذا رجل لو كان في الهند، أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسُّلطان أن يسعى في حلوله في بلاده لتتمَّ بركته عليه، وعلى بلاده، ويفتخر به على سائر الملوك! وكان لتدخل الشيخ جمال الدين الحصري أثر في احترام، وتقدير الشيخ العز؛ حتى إنَّ السلطان قال: نحن نستغفر الله ممَّا جرى، ونستدرك الفارطة في حقِّه، والله لأجعلنه أغنى العلماء! وأرسل إلى الشيخ، واسترضاه، وطلب محاللته، ومخاللته[2]، فكان بعد ذلك يأخذ بفتواه، ومشورته.

وقد طلبه في مرض موته كما ذكرنا، وسأله محاللته، ونصحه، فنصحه العزُّ بأن يحوِّل عسكره الذين استعدوا لقتال أخيه الملك الكامل حاكم مصر إلى جهة العدو المشترك التتار، وكانوا قد ظهروا في شرق بلاد الإسلام في ذلك الوقت، فأمر الأشرف بذلك. كما نصحه بإبطال المنكرات التي يرتكبها نوابه من الزنى، وإدمان الخمور، وتمكيس المسلمين، وظلم الناس، فأمر الأشرف بإبطال ذلك، كما باشر العزُّ بنفسه تبطيل بعضها. وبعد هذه النصيحة قال الأشرف: جزاك الله عن دينك، وعن نصائحك، وعن المسلمين خيراً، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنِّه، وكرمه! وأطلق له ألف دينار مصريَّة، فردَّها عليه، وقال: هذه اجتماعة لله، لا أكدرها بشيء من الدنيا[3]!

ثم لم يمض أخوه الصالح إسماعيل تبطيل المنكرات، وكان نائبه يومئذٍ، ثم استقلَّ بالملك بعد موته، ثم لم يلبث إلا يسيراً؛ حتى قدم أخوه الملك الكامل من الدِّيار المصرية بجيوشه إلى دمشق، وحاصر أخاه

(1) العز بن عبد السلام حياته واثاره ومنهجه ص 56.

(2) طبقات السبكي (218/8) والعز بن عبد السلام للوهيبي ص 56.

(3) العز بن عبد السلام للوهيبي ص 57 وطبقات السبكي (241/8).

إسماعيل، ثم اصطلح معه، وأكرم الكامل العزَّ غاية الإكرام، وقد اجتمع مع العز بحضور أخيه إسماعيل، فقال الكامل: إنَّ هذا له غرامٌ برمي البندق، فهل يجوز له ذلك؟ فقال الشيخ: بل يحرم عليه، فإنَّ الرسول(ﷺ) نهى عنه، وقال: «إنّه يفقأ العين، ويكسر العظم»[1]. فيلاحظ: أنَّ ملوك بني أيوب كانوا يعزُّون الشيخ، ويكرمونه غاية الإكرام، ويحبُّون مجالسته، والاستماع إلى نصحه، والعمل بمشورته بما فيه خير الإسلام، والمسلمين، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ولا يهابهم، ولا يجاملهم[2].

وقد اشتهر العز بالإفتاء، حتى إنَّ الناس كانت تَرِدُ عليه من البلاد لتستفتيه، كما أنَّ شهرته بذلك قد وصلت إلى مصر قبل أن يذهب إليها؛ بدليل: أنه لما ذهب إليها سنة (639هـ).

امتنع مفتيها الحافظ المنذري من الفتيا، وقال: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره؛ فمنصب الفتيا متعيِّنٌ عليه[3]. وقد بادله العزُّ نفس الإكرام، والتقدير، فامتنع عن التحديث لوجود حافظ عصره المنذري، وكان كلٌّ منهم يجلُّ الاخر، ويحضر دروسه[4]. وكان العزُّ حريصاً كل الحرص في فتاويه، يتحرَّى الدَّقة فيها، حتى إنَّه مَرَّةً أفتى بشيءٍ، ثم تبيَّن: أنه أخطأ، فنادى في الأسواق في مصر، والقاهرة على نفسه: أنه من أفتاه فلانٌ بكذا؛ فلا يعمل به؛ فإنه[5] خطأ، وهذا يدلُّ على شدَّة ورعه، ومراقبته لله، وخشيته منه، وحرصه الشديد ألا يضلَّ أحدٌ من عباد الله بسببه، ولم يأبه لمن سيوصمه بالجهل، وعدم المعرفة؛ لأنه اثر الاخرة على الدنيا، وثواب الله على مدح الناس؛ لذلك أكرمه الله سبحانه، وجعل له القبول في قلوب عباده، فقُصِد بالفتوى من سائر البلاد[6]، وسارت فتاويه مع الركبان، وتحدَّث الناس بها، وعملوا بها من الخلفاء، والملوك، والسلاطين إلى العامَّة، والضعفاء، والمساكين، وترك لنا تراثاً في الفتاوى، سميت بعضها بالفتاوى المصرية، والأخرى بالفتاوى الموصليَّة، وقد قال عنه ابن كثير: انتهت إليه رئاسة المذهب، وقُصد بالفتوى من سائر الافاق، ثم كان في اخر عمره لا يتعبَّد بالمذاهب، بل اتَّسع نطاقه، وأفتى بما أدَّى إليه اجتهاده[7]

(1) المصدر نفسه ص 57 نقلاً عن طبقات السبكي.
(2) العز بن عبد السلام للوهيبي ص 57.
(3) الشيخ العز بن عبد السلام حياته واثاره ص157.
(4) فتاوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ص129.
(5) المصدر نفسه ص133.
(6) المصدر نفسه ص123 ، 130.
(7) البداية والنهاية (442/17).

3 . القضاء:

ذكر ابن السبكي عن رسالة ولد العزِّ الشيخ عبد اللطيف في أخبار والده: أنَّ الملك الكامل لما حاصر دمشق، واستولى عليها من أخيه الملك الصالح إسماعيل ولَّى والده الشيخ تدريس زاوية الغزالي بجامع دمشق، وذكَّر بها الناس، ثم ولاه قضاء دمشق بعدما اشترط عليه الشيخ شروطاً كثيرةً ودخل في شروطه، ثم عيَّنه للرسالة إلى الخلافة المعظَّمة، ثم اختلسته المنية ـ رحمه الله ـ في 22 رجب سنة 635هـ، فكانت مدَّة ملكه دمشق شهرين ونصف تقريباً[1]. وذكر الداودي: أنَّ الكامل ولَّى الشيخ تدريس الزاوية الغزالية بجامع بني أمية، وعزم على ولايته قضاء دمشق، وإرساله في الرسالة إلى بغداد، فمات دون إمضاء ذلك بدمشق[2]. فعبارة الداودي تفيد: أن الشيخ لم يتولَّ منصب القضاء، ولم يقم بالرِّسالة؛ لأن الكامل مات قبل تنفيذ ذلك الأمر، بينما عبارة ولده تخالف ذلك؛ حيث أفادت: أنه تولَّى القضاء، وليست قاطعةً بذلك، فهي محتملةٌ: أنه عينه، ولم يباشر حيث مات الكامل بعد شهرين ونصف، وجاء بعده أخوه الملك إسماعيل، فلم ينفذ ذلك، وهذا الاحتمال هو الراجح، ويقويه نصُّ عبارة الداودي: ولو أن الدكتور رضوان اطَّلع على هذا النص؛ لما قال: ولعلَّ عز الدين بقي في منصب قضاء دمشق برهةً من الزمن خلال هذه الفترة القصيرة من حكم الكامل لدمشق؛ إذ حكم بعد أخوه الصالح إسماعيل، ولم يكن يعجب بالشيخ، ولا يرضى أن يبقيه في القضاء، وقد حرَّم عليه اللَّعب بالبندق. ولعلَّ قصر فترة بقائه بهذا المنصب جعل أصحاب التراجم، وابن طولون لا يذكرونه بين قضاة دمشق[3].

ولما هاجر إلى مصر أسند إليه الملك نجم الدين أيوب الخطابة، والقضاء؛ حيث توفي قاضي قضاة مصر شرف الدين بن عين الدولة سنة 639هـ، فولَّى السُّلطان العزَّ القضاء مكانه، وحدَّد له قضاء مصر، والصعيد، وأبقى قضاء القاهرة، والوجه البحري مع قاضٍ غيره، كما فوَّض إليه مع القضاء الإشراف على عمارة المساجد المهجورة في مصر، والقاهرة، وسار بالعدل، والإنصاف، ورفع الجور، والحيف مهما كلَّفه الثمن[4].

---

(1) ذيل الروضتين لأبي شامة ص166 والشيخ العز بن عبد السلام للوهيبي ص58.

(2) العز بن عبد السلام للوهيبي ص 58.

(3) المصدر نفسه ص58.

(4) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ص127.

4. الخطابة:

لما تولَّى الشيخ عز الدين الخطابة بدمشق؛ أزال كثيراً من البدع؛ التي كان يفعلها الخطباء من دقِّ السيف على المنبر، ولبس السواد، والسَّجع المتكلَّف، والثناء على الملوك بما ليس فيهم، بل كان يدعو لهم، وأبطل صلاتي الرَّغائب، والنصف من شعبان، وقد وقع بينه وبين ابن الصَّلاح (ت 643هـ) خلاف، ووحشةٌ بسبب صلاة الرَّغائب؛ لأنه كان يؤيدها. واستمرَّ العز في خطبته بالجامع الأموي سنة، ونيِّفاً؛ حتى عزله الصَّالح إسماعيل بسبب إنكاره عليه تحالفه مع الصَّليبيين سنة 638هـ[1]. ولما هاجر إلى مصر استقبله صاحبها نجم الدين أيوب أعظم استقبال، وقرَّبه، وأدناه، وأكرمه، وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص، وقد قام بمهمته أعظم قيام، وأدَّى رسالة المسجد؛ التي عاش من أجلها على أحسن وجه، امراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صادعاً بالحق، منكراً للباطل، وكان حريصاً ألا يعزل نفسه عن الخطابة، كما فعل في عزل نفسه عن القضاء؛ لأنه لا يخشى الحيف، وظلم النَّاس في الخطابة خلافاً للقضاء. وكان الملك نجم الدين يخشى من سلاطة لسانه، وجرأته؛ لذلك سارع إلى عزله عن الخطابة، عندما عزل نفسه عن القضاء بعد حادثة إسقاط عدالة وزيره معين الدين ابن شيخ الشيوخ[2]، وتولى الخطابة بعده المجد الأحميي[3]، كما سيأتي معنا بإذن الله تعالى.

ثامناً: أهم صفات العزِّ بن عبد السلام:

تميَّزت شخصية الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمجموعةٍ من الصفات، من أهمها:

1. الشجاعة:

من الصفات التي لازمت العزَّ بن عبد السلام طيلة حياته الشجاعة في الحق، ذلك لأنه كان مع الحقِّ يدور حيث دار، وما قصَّته مع نائب السُّلطان عندما عزم على بيع المماليك إلا دليلٌ ساطعٌ على شجاعته، وجرأته، وأنه لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخشى سلطاناً، ولا يهاب الموت في سبيل الله، وقد ذكر ابن السبكي: أنَّ جماعة من المفسدين قصدوه في ليلةٍ معتمةٍ وهو في بيت عالم في بستانٍ

(1) المصدر نفسه ص125.

(2) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ص127.

(3) المصدر نفسه ص127.

متطرِّفٍ عن البساتين، وأحاطوا بالبيت، فخاف أهله خوفاً شديداً، فعند ذلك نزل إليهم، وفتح باب البيت، وقال: أهلاً بضيوفنا، وأجلسهم في مقعدٍ حسن، وأخرج لهم ضيافةً حسنةً، فتناولوها وطلبوا منه الدُّعاء؛ إذ كان مهيباً له موقعٌ حسن في القلوب، فهابوه، وعصم الله أهله، وجماعته منهم بصدق نِيَّته، وكرم طويَّته، وانصرفوا عنه[1].

ومن المواقف التي تدلُّ على شجاعته:

. إنكاره على الملوك التنازل عن ديار المسلمين، وعقد الصلح مع الصليبيين المعتدين:

لما تحالف الصالح إسماعيل مع الصَّليبيين، وأسلمهم قلعة صفد، وقلعة الشقيف، وصيدا، وبعض ديار المسلمين؛ ليساعدوه على الصالح نجم الدين أيوب، حاكم مصر، لأنَّ الصالح إسماعيل خاف منه، فكاتب الفرنجة، ليساعدوه ضدَّ ابن أخيه حاكم مصر، فكان الثمن تسليم ديار المسلمين. وتطبيع العلاقات، وفتح الحدود، فدخل الصليبيون دمشق[2]. وكان ذلك في عام 638هـ. وزيادةً على ذلك أذن الصالح إسماعيل للصليبيين بدخول دمشق لشراء السِّلاح لقتال المسلمين في مصر، وهذه خيانةٌ عظمى، واستسلامٌ ذليل، وخروج عن الدِّين، والشرع. وجاء دور الشيخ العز الذي يغضب لله، وينتصر لدينه، ويدافع عن أرض الإسلام، وحقوق المسلمين، ويجاهر بالنهي عن المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم، وتصدَّى كالأسد الهصور للمواجهة والنزال، وشقَّ عليه ما حصل مشقةً عظيمة.

وبدأت الجولة الأولى باستفتاء الشيخ العز في مبايعة الفرنج للسِّلاح، فقال: يَحْرم عليكم مبايعتُهم؛ لأنكم تتحقَّقون أنهم يشترونه؛ ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين. ثمَّ صعد الشيخ العز منبر المسجد الأموي الكبير، وذمَّ موالاة الأعداء، وقبَّح الخيانة، وذمَّ الأعمال المشينة التي حصلت، وشنَّع على السلطان، وقطع الدعاء له بالخطبة، وصار يدعو أمام الجماهير بما يوحي بخلعه، واستبداله، ويقول: اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رَشَداً، تُعِزُّ فيه وليَّك، وتذل فيه عدوَّك، ويُعمل فيه بطاعتك، ويُنهى فيه عن معصيتك؛ والناس يبتهلون بالتأمين، والدُّعاء للمسلمين، والنصر على أعداء الله الملحدين[3]. وكان الملك الصالح إسماعيل خارج دمشق، فلمَّا وصله الخبر أحسَّ بالخطر الذي يحدق به، والثورة المتوقَّعة عليه، فسارع إلى إصدار

---

[1] طبقات السبكي (229/8) وفتاوى شيخ الإسلام ص109.

[2] صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء ص19.

[3] طبقات الشافعية (243/8) والعز بن عبد السلام للزحيلي ص176.

الأمر الكتابي بعزل الشيخ العز من الخطابة، والإفتاء، وأمر باعتقاله، واعتقال الشيخ ابن الحاجب المالكي الذي شاركه الإنكار على فعل السلطان، ولما قدم إسماعيل إلى دمشق أفرج عنهما، وألزم الشيخ العز بملازمة داره، وألا يفتي[1].

. العز يرفض المساومة، ولو قبَّل السلطان يده:

توجَّه الصالح إسماعيل إلى مصر، تحرسه الجيوش الصَّليبيةُ الحاقدة، ليحارب الصالح أيوب، وكأنه تأسَّف لإطلاق الشيخ، وأوجس في نفسه خيفةً، فأرسل إلى سلطان العلماء بعض أعوانه، وأمره أن يستنزله على وجه السياسة في زعمه، ليقع منه مداهنة، ولو في بعض الأوقات، أو في بعض الأحوال، فقال السُّلطان لرسوله: تتلطَّف به غاية التلطُّف، وتستنزله، وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال؛ فإن وافقك، فتدخل به عليَّ، وإن خالف؛ فاعتقله في خيمته إلى جانب خيمتي، فلمَّا اجتمع رسولُ السُّلطان مع سلطان العلماء، شرع في مسايسته، وملاينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه، وزيادة أن تنكسر للسلطان، وتقبّل يده لاغير. فقال له: يا مسكين! ما أرضاه أن يُقبّل يدي، فضلاً أن أقبّل يده! يا قوم! أنتم في وادٍ، وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به! فقال له: قد رُسم لي إن لم تُوافق على مايُطلب منك؛ اعتقلتُك! فقال: افعلوا ما بدا لكم!

فأخذه، واعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمة السُّلطان[2]، فأخذ سلطان العلماء . رحمه الله . يقرأ القران، والسُّلطان يسمع، فقال يوماً لملوك الصَّليبيين: أتسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القران؟ قالوا: نعم. قال السُّلطان: هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته، لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه، ثم أخرجته، فجاء القدس، وقد جدَّدتُ حبسه، واعتقاله لأجلكم[3].

فقال ملوك الفرنجة: والله لو كان هذا قسّيسنا؛ لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها[4].

ولله در القائل:

ومَن يَهُنْ يَسْهُلِ الهوان عليه ... ما لجُرحٍ بِميّتٍ إيْلام

---

(1) المصدر نفسه (243/8) والمصدر نفسه ص176.

(2) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء.

(3) المصدر نفسه ص 27.

(4) المصدر نفسه ص 26.

ثم جاءت الجيوش الإسلامية من مصر، ففرّقوا عساكر الصَّليبيين، ونصر الله أهل طاعته، وخذل المنافقين، ونجَّى الله الشيخ من كيد الشَّيطان، وحزبه، ودخل مصر امناً[1].

ـ نصحه للملوك: دخل سلطان العلماء العزُّ بن عبد السلام يوم العيد القلعة، والسُّلطان نجم الدِّين أيوب بن الكامل في زينته، وجنوده بين يديه، وأمراء الدولة تقبِّل الأرض له؛ فالتفت سلطان العلماء إليه منادياً باسمه المجرَّد: يا أيُّوب؛ ما حُجَّتُك عند الله، إذا قال لك: ألم أُبَوِّأى لك مصر، تبيح الخمور؟! فتجاهل أيوب حقيقة السؤال تجاهل العارف، وتنمُّرَ المريب قائلاً: هل جرى هذا؟ فرفع الشيخ عز الدين بن عبد السلام صوته: نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلَّب في نعمة هذه المملكة. فقال: سيِّدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمن أبي! فأجابه الشيخ عز الدين: أنت من الذين يقولون: ! وتسلل الرعب إلى نفس السلطان؛ فرسم بإبطال تلك ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾، وبدأ الناس يتساءلون عن سرِّ هذه الجرأة، ويوجَّه هذا الاستغراب، والتساؤل إلى سلطان العلماء على لسان تلميذه الباجي:

يا سيدي؛ كيف الحال؟ فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ: يا بني رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أهينهُ، لئلا تكبر نفسه، فتؤذيه. فقال تلميذه: أما خفته؟ قال الشيخ: والله يا بني استحضرت هيبة الله، فصار السُّلطان قدَّامي كالقطِّ[2]!

---

[1] المصدر نفسه ص 26.

[2] صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز ص28.

. سلطان العلماء وبيع الأمراء في المزاد:

رأى سلطان العلماء: أنَّ المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب، ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين، واستعملهم في خدمته، وجيشه، وتصريف شؤون الدولة يمارسون البيع والشراء، وهو تصرفٌ باطل؛ لأن المملوك لا ينفذ تصرفه.

فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعاً، ولا شراءً، فضايقهم ذلك، وشجر بينهم وبينه كلامٌ حول هذا المعنى، فقال لهم بائع الملوك: أنتم الان أرقَّاء، لا ينفذ لكم تصرُّف، وإنَّ حكم الرق مستصحبٌ عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت على بيعكم. فاحتدم الأمر، وبائع الملوك مصمِّم، لا يصحِّح لهم بيعاً، ولا شراءً، ولا نكاحاً، فتعطَّلت مصالحهم، وكان من جملتهم نائب السُّلطان الذي اشتاط غضباً، واحمرَّ أنفه، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلى بائع الملوك، فقال: نعقد لكم مجلساً، ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعيٍّ. فرفعوا الأمر إلى السُّلطان، فبعث إليه، فلم يرجع، فخرجت من السلطان كلمةٌ فيها غلظةٌ، حاصلها الإنكار على الشيخ ـ رحمه الله ـ في دخوله في هذا الأمر، وأنَّه لا يتعلَّق به[1]. وهنا أدرك الشيخ العز أنَّ أعوان الباطل تمالؤوا عليه، ووقفوا في وجه الحقِّ، وتطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق ـ في الدين ـ بين كبيرٍ، وصغير، وحاكمٍ، ومحكوم، وأميرٍ، ومواطن، فلجأ إلى سلاحه الضعيف الباهت في ظاهره، القويِّ الفعَّال المدمِّر في حقيقته، وجوهره، وسنده، وأعلن الانسحاب، وعزل نفسه عن القضاء، وقرَّر الرحيل عن القرية الظالم أهلها، والتي ترفض إقامة شرع الله، ونفَّذ العزُّ قراره فوراً، وحمل أهله، ومتاعه على حمارٍ، وركب حماراً اخر، وخرج من القاهرة.

وما أن انتشر الخبر بين الناس في مصر، حتى تحرَّكت جموع المسلمين وراءه، فلم تكد امرأةٌ، ولا صبيٌّ، ولا رجلٌ لا يؤبه إليه يتخلَّف، ولا سيما العلماء، والصالحين، والتجَّار، وأمثالهم، ولسان حالهم يقول: لا خير في مصر إن لم يكن فيها العزُّ بن عبد السلام، وأمثاله، القائمون بالكتاب، والسنَّة، والامرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، المجاهدون في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، ولا شماتة شامت، ورُفِعَت التقارير حول هذه الظاهرة إلى القاهرة، وكانت التوصيات: متى راح ذهب ملكُك. فركب السُّلطان بنفسه، ولحقه، واسترضاه، وطيَّب قلبه، فرجع بشرط أن يُنادى على ملوك مصر، وأمرائها، ويبيعهم. فأرسل إليه كبيرهم ـ نائب السُّلطان ـ بالملاطفة؛ والشيخ لم يتغير؛ لأنه يريد إنفاذ حكم الله، عندئذٍ انزعج

(1) المصدر نفسه ص31.

نائب السلطان، وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسدياً، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعُنا؛ ونحن ملوك الأرض، والله لأضربنَّه بسيفي هذا في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ؛ والسيف في يده صلتاً، فطرق الباب فخرج إليه ولد الشيخ، فرأى أمراً جلداً، فعاد إلى أبيه، وأخبره الحال، فقال بائع الملوك ممتلئاً إيماناً بربه؛ قائلاً لولده: يا ولدي! أبوك أقلُّ من أن يُقْتل في سبيل الله! فلمَّا راه نائب السلطان؛ اهتَّز يده، وارتعدت فرائصه، وسقط أرضاً، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له قائلاً:

يا سيدي! خيراً؛ أيُّ شيءٍ العمل؟ فقال الشيخ: أنادي عليكم، وأبيعكم. قال نائب السلطان: ففيم تصرف ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين. قال نائب السُّلطان: من يقضيه؟ قال الشيخ: أنا. وأنفذ الله أمره على يد الشيخ ـ رحمه الله ـ فباع الملوك منادياً عليهم واحداً تلو الاخر، وغالى سلطان العلماء في ثمنهم، وقبضه، وصرفه في وجوه الخير؛ التي تعود بالنفع على البلاد، والعباد[1].

ومن هنا عُرِف الشيخ العزُّ، بأنه «بائع الملوك» واشتهر أمره في الافاق، وسجَّل له التاريخ موقفاً فريداً لم يشهده العالم أجمع، وعلا صوت الحقِّ، وعزَّ العلماء، وتمَّ تطبيق شرع الله تعالى، وهزم الباطل، وطاشت سهام السُّلطة، والقوة المادية أمام سلطان الله تعالى، وأحكامه، وصدق على العزِّ حديث رسول الله (ﷺ): «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[2]. وعاد العز إلى عرينه في كنف الله تعالى، ورعايته؛ وهو يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُور﴾ [الحج: 38] ويقول: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ*﴾[يوسف: 21].

العزُّ يهدم قاعة المنكر، ويسقط عدالة الوزير:

لم تمض سنةٌ واحدة على حادثة بيع الأمراء في المزاد العلني؛ حتى وصل إلى علم الشيخ عز الدين ما فعله أستاذ الدَّار عند السلطان، وهو ما يعادل اليوم «كبير أمناء الملك، أو الرئيس»، وهو معين الدين بن شيخ الشيوخ، والذي كان يجمع إلى منصبه اختصاصات الوزير، وقائد الجيش في المعارك. وفتح دمشق، لكنَّه كان متحلِّلاً، وعابثاً، ومعتداً بقوته، ومنصبه، ولذلك تجرأ على منكرٍ كبير، يخالف أحكام الدين، ويسخر بالشرع، ويسيء إلى مشاعر المسلمين، فبنى فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة (أي: قاعة لسماع الغناء والموسيقا) وذلك سنة 640هـ. وما أن ثبت ذلك عند الشيخ العز وهو يتولَّى منصب

(1) صفحات مطويات من حياة سلطان العلماء ص33 ، 34.

(2) العز بن عبد السلام للزحيلي ص182.

قاضي القضاة، حتى غضب لله تعالى، وإهانة بيت الله، وإعلان المنكر، وارتكاب الفواحش، وأصدر أمره بهدم البناء، ولكنَّه خشي من جبن الناس في التنفيذ، أو المعارضة في الهدم، فقام بنفسه، وجمع معه أولاده، والموظفين عنده، وذهب إلى المسجد، وحمل معوله معهم، وقاموا بإزالة المنكر، وهدم البناء المستحدث فوق المسجد. ولم يكتف العزُّ بهذا التحدِّي للوزير، والسلطان معاً، بل أسقط عدالة الوزير (بما يعني: عدم قبول روايته، وشهادته) وعزل نفسه عن القضاء، حتى لا يبقى تحت رحمة السُّلطان، وتهديده بالعزل، أو غيره.

وكان لهذا العمل دويٌّ هائل، وأثر عجيبٌ، وتنفس الناس الصُّعداء من تسلُّط الحكام، وارتكاب المخالفات، وممارسة التجاوزات الشرعية، ولم يجرؤ أحدٌ أن يمسَّ الشيخ العز بسوءٍ، بل أدرك السُّلطان نجم الدين: أنَّ الحقَّ مع الشيخ، وتلطَّف معه للعودة إلى القضاء، ولكنَّ الشيخ أصرَّ على ذلك، وظنَّ الوزير: أنَّ ذلك لن يكون له أيُّ أثر، وأن كلام الشيخ العز سيذهب مع الرياح، ولكن الواقع غير ذلك. وطار الخبر في الآفاق؛ حتى وصل إلى الخليفة في بغداد، وأخذ صداه الواسع في العالم الإسلامي[1]. قال السبكي: واتفق أن جهَّز السلطان الملك الصالح رسولاً من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد، فلمَّا وصل الرسول على الديوان، ووقف بين يدي الخليفة، وأدَّى الرسالة؛ خرج إليه وسأله: هل سمعت هذه الرِّسالة من السلطان؟ فقال: لا؛ ولكن حمَّلنيها عن السلطان معين الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ داره؛ فقال الخليفة: إنَّ المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته، فرجع الرَّسول إلى السُّلطان بمصر؛ حتَّى شافهه بالرِّسالة، ثم عاد إلى بغداد، وأدَّاها[2].

. معارضته لشجرة الدرِّ سلطنتها على مصر: قال ابن إياس: فلمَّا وقع الاتفاق على سلطنتها، حضر القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، وبايعها بالسلطنة على كرهٍ منه. قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: لمـّا تولت شجرة الدرِّ على الديار المصرية، عملت في ذلك مقامةً، وذكرت فيها بماذا ابتلى الله به المسلمين بولاية امرأةٍ عليهم. وكانت سلطنتها يوم الخميس ثاني صفر سنة ثمانٍ وأربعين وستمئة[3]. وفي هذا ردٌّ على من يزعم بأنه لا أحد من علماء الدين لم يبد اعتراضاً على ذلك[4]. وسيأتي الحديث

(1) العز بن عبد للزحيلي ص183.
(2) طبقات الشافعية (211/8) والعز بن عبد السلام للزحيلي ص184.
(3) بدائع الزهور (286/1).
(4) طبقات السبكي (215/8) وفتاوى شيخ الإسلام العز ص120.

عن حكم تولّي المرأة للسلطنة في كتابنا القادم بإذن الله تعالى.

ـ في حرب التتار وفتاويه الشجاعة: ومن مواقفه ـ رحمه الله ـ: في حرب التتار الذين داهموا البلاد الإسلامية، ودمَّروا بغداد، وأبادوا المسلمين، وعظم خطرهم على العالم الإسلامي، وجبن الناس عن ملاقاتهم، وحربهم، وخاف أهل مصر، وضاقت بالسُّلطان وعساكره الأرض، عندها تدخَّل الشيخ ـ رحمه الله ـ وبثَّ الهمَّة في نفوس الناس، وذكَّرهم بضرورة الجهاد، وعندما استشاره السلطان قطز بأمر المملكة، وحرب التتار؛ قال رحمه الله: اخرجوا وأنا ضامنٌ لكم على الله النصر! فقال السلطان له: إنَّ المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار ما أستعين به على قتال التتار[1]. وكان في مجلس السلطان كبار العلماء، والفقهاء، والقضاة، فكان الرأي ما ذهب إليه ابن عبد السلام؛ حيث قال: إنَّه إذا طرق العدو بلاد الإسلام؛ وجب على الإمام قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرَّعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيءٌ، وتبيعوا مالكم من الحوائص المذهبَّة، والالات النفيسة، ويقتصر كلُّ الجند على مركوبه، وسلاحه، ويتساووا هم، والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقائها في أيدي الجند من الأموال، والالات الفاخرة؛ فلا[2]. فنفذ الملك والأمراء والجند فتوى العز، وامتثلوا أمره، فقد أحضر الأمراءُ كافة ما يملكون من مالٍ، وحليّ نسائهم، وأقسم كل واحدٍ منهم: أنَّه لا يملك شيئاً في الباطن، ولما جمعت هذه الأموال، وضربت، وسكت نقداً؛ أنفقت في تجهيز الجيش، ولما لم تكف هذه الأموال نفقة الجيش؛ أخذ السلطان قطز ديناراً واحداً من كلِّ رجلٍ قادر في مصر، فجمع بذلك الأسلوب الفريد المال الحلال؛ الذي لا ظلم، ولا عدوان فيه، ومع الاستعداد النفسي الذي قام به العزُّ، وإخوانه من العلماء تنزَّل نصر الله على عباده المؤمنين، وهزم الله التتار في عين جالوت سنة 658هـ[3].

ومن أسباب النصر شعور الناس بقيمة العدل؛ التي ساهمت في جعل روحٍ جديدة تسري في كيان الشعب المسلم تحت قيادة السلطان قطز من خلال الفتاوى الفذَّة التي أفتى بها الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

وهكذا كانت مواقف العز بن عبد السلام من حكام عصره، في حياته المديدة كلِّها امراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صادعاً بالحق، حرباً على الباطل وأهله، عاش أحداث عصره فأثرت به، وتفاعل معها،

---

[1] السلوك (428/1) النجوم الزاهرة (72/7).

[2] المصدر نفسه.

[3] فتاوى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ص120.

وتأثر بها، فجاهد باليد، كما جاهد بالقلم، واللسان، حتى كُتب اسمهُ بأحرف من نور في سجل الخالدين، وترك خلفه مدرسةً غنيةً لكلِّ باحث، وسيرةً عبقةً يقتدي بها الباحثون عن الحقِّ، وأنصار الشرع، والعدالة[1].

2 . زهده:

لقد ضرب لنا العزُّ مثلاً للزهد بسيرته، ومواقفه، فكان رحمه الله زاهداً في الدنيا مع مشاركته في أحداثها، وانخراطه في حلِّ مشكلاتها، ومعضلاتها، فلم يكن منعزلاً عن الناس، بل كان يعيش بينهم رافضاً دنياهم، يذكِّرهم بأخراهم، فكان أغنى الناس رغم فقره؛ إذ لم يكن يتطلَّع إلى ما في أيديهم، بل كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، عطاء الواثق بربه، يعطي الأغنياء، والفقراء رغم فقره، ولا يردُّ سائلاً سأله رغم حاجته، فإذا لم يجد ما يعطي ما في جيبه؛ خلع شيئاً من لباسه، أو جزءاً من عمامته، أو شيئاً من أثاث بيته، وأعطى لسائله. كان زاهداً في متاع الدنيا رغم أنه كان ملء سمعها وبصرها، يعمل فيها للاخرة رغم أنها جاءته تسعى راغمةً. والدليل[2] على ذلك مواقف كثيرةٌ، منها: عندما عرض عليه رسول الملك الصالح إسماعيل أن ينكسر للسُّلطان، ويقبل يده، ويعتذر إليه من موقفه من التحالف مع الصَّليبيين، وتسليم حصون المسلمين لهم. كما مرَّ معنا؛ قال الشيخ: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبِّل يدي فضلاً أن أقبل يده! يا قوم! أنتم في وادٍ، وأنا في وادٍ، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به[3]

ومن زهده، وورعه . رحمه الله .: أنَّه نصح للملك الأشرف؛ وهو في مرضه الذي مات فيه، وامتثل أمره، وعمل بنصحه، وأمر له بألف دينار مصرية، فردَّها الشيخ عليه، ولم يقبلها، وقال: هذه اجتماعة لله، لا أكدِّرها بشيءٍ من الدنيا! وودَّع الشيخُ السلطانَ، ومضى[4]. ولما هاجر الشيخ العزُّ من دمشق وقد ناهز الستين لم يحمل شيئاً من حطام الدنيا! ومتاع البيت، أو ما كدَّسه من مناصبه، وأعماله. ولما استقال العزُّ من القضاء عند فتواه ببيع الأمراء ورفض السلطان لذلك؛ خرج من القاهرة، وكلُّ أمتعته في الحياة مع أسرته حِمْلُ حمارٍ واحد، ممَّا يدلُّ على قناعته بالقليل، وزهده في المال، والمتاع. ولما مرض الشيخ العزُّ، وأحسَّ بالموت؛ أرسل له الملك الظاهر بيبرس أن يعيِّن أولاده في مناصبه، وقال: .. أن يكون ولدك

---

(1) المصدر نفسه ص120.

(2) طبقات السبكي (230/8) وما بعدها.

(3) المصدر نفسه (243/8).

(4) طبقات الشافعية (240/8) والعز بن عبد السلام للزحيلي ص 107.

مكانك بعد وفاتك «في تدريس الصَّالحية». فقال العز: ما يصلح لذلك، قال له: فمن أين يعيش؟ قال: من عند الله تعالى، قال له: نجعل له راتباً؟ قال: هذا إليكم[1]، ثم أشار إلى تعيين تقي الدين بن بنت الأعز[2].

والحقيقة: أن ولد العز الشيخ عبد اللطيف كان عالماً فقيهاً، يصلح للتدريس، ولكن ورع العزِّ، وزهده منعه من جعل منصب التدريس وراثةً لأولاده[3].

3 . حبه للصَّدقة:

كان كثير الصدقات، باسط اليد فيما يملك، يجود بماله، ولو كان قليلاً طمعاً بالأجر، والثواب، وادخار ذلك إلى يوم الدين. حكى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ـ رحمه الله ـ: أن الشيخ لما كان بدمشق وقع مرةً غلاءٌ كبير؛ حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل، فأعطته زوجته مصاغاً لها، وقالت: اشترِ لنا به بستاناً، نَصِيْفُ به، فأخذ ذلك المصاغ، وباعه، وتصدَّق بثمنه، فقالت: يا سيّدي اشتريت لنا؟ قال: نعم بستاناً في الجنة، إنِّي وجدت الناس في شدَّةٍ، فتصدَّقت بثمنه! فقالت له: جزاك الله خيراً[4]. فجدَّد سيرة أصحاب رسول الله (ﷺ) والسَّلف الصالح[5]. وحكى ابن السبكي عن حبِّ العزِّ للتصدَّق: أنه كان في فقره كثير الصَّدقات، وأنه ربَّما قطع من عِمامته، وأعطى فقيراً يسأله إذا لم يجد معه غير عِمامته[6].

4 . ورعه وتقواه:

كان العزُّ صاحب ورعٍ؛ إذ كان ورعاً، ويعلِّم الناس الورع، بمواقفه أولاً، ثم بعلمه الفياض ثانياً، ومما يدلُّ على ذلك قوله: يجب على الخنثى المشكل أن يستتر في الصَّلاة كالتستر للنساء احتياطاً[7]. قوله: من نسي ركعتين من السنن الرواتب، ولم يعلم أهي سنة الفجر أم سنة الظُّهر؛ فإنا نأتي بالسنتين؛ لنحصل على المنسيَّة، ولمن نسي صلاةً من صلاتين مفروضتين أيضاً[8].

---

(1) العز بن عبد السلام ، للزحيلي ص 107.
(2) المصدر نفسه ص 108.
(3) المصدر نفسه ص 108.
(4) طبقات الشافعية الكبرى (214/8).
(5) العز بن عبد السلام للزحيلي ص 108.
(6) المصدر نفسه ص 108.
(7) فتاوى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ص 106.
(8) قواعد الأحكام (25/2).

5. تواضعه وعدم التكلُّف:

كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام متواضعَ النفس مع ربّه، ومع الناس، ومع نفسه، ولا يتكلف لشيءٍ في حياته، ومعيشته، ولباسه، وسلوكه مع الجميع، فعندما كتب له الملك الأشرف رسالته، وفيها ما يَلزِمه بالاجتهاد لمذهب خامسٍ في العقيدة: «إن كنت تدَّعي الاجتهاد؛ فعليك أن تثبت؛ ليكون الجواب على قَدْر الدَّعوى؛ لتكون صاحب مذهبٍ خامس». فأجابه العزُّ بكلّ تواضعٍ، وقال عن هذه النقطة: وأمَّا ما ذُكر من أمر الاجتهاد، والمذهب الخامس، فأصول الدين ليس فيها مذاهب، فإنَّ الأصلَ واحدٌ[1]. وعندما جاء نائب السلطنة في مصر حاملاً سيفه ليقتل العزَّ؛ لفتواه ببيع الأمراء المماليك ـ كما مَرَّ معنا ـ قام لاستقباله، فاعترضه ابنُه خشيةً عليه من القتل، فقال له: يا ولدي! أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله[2]! وكان العزُّ يترك التكلُّف في لباسه، فكان يلبس مرَّةً العمامة، ومرةً قبَّعةً من لبَّاد، بحسب ما يتيسَّر له، ويحضر بها المناسبات، والمواكب. قال: ابن السبكي بعد حكايةٍ تصدُّقِه بالعمامة: وفي الحكاية ما يدلُّ على أنَّه كان يلبس العمامة، وبلغني: أنه كان يلبس قبَّعة لبَّادٍ، وأنه كان يحضر المواكب السُّلطانية به، فكأنه كان يلبس تارةً هذا، وتارةً هذا، على حسب ما يتَّفق من غير تكلُّف[3].

6. بلاغته، وفصاحته:

كان العزُّ بن عبد السلام بليغاً فصيحاً، قويَّ العبارة ذات المعاني المتعدِّدة؛ وقد ترك لنا أقوالاً مأثورةً، منها:

أ. في نصرة الحق:

ينبغي لكلّ عالمٍ إذا أُذِلَّ الحقُّ، وأُخمل الصَّواب أن يبذل جهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذلّ، والخمول أولى منهما. وإن عزَّ الحق، فظهر الصَّواب؛ أن يستظلَّ بظلهما، وأن يكتفي باليسير مِنْ رشاشِ غيرهما[4].

(1) طبقات الشافعية الكبرى (231/8 ، 233).
(2) العز بن عبد السلام للزحيلي ص110.
(3) المصدر نفسه ص110.
(4) المصدر نفسه ص110.

ب ـ الشرع هو الميزان:

والشرع ميزان يوزن به الرِّجال، وبه يتيقَّن الربح من الخسران، فمن رجح في ميزان الشرع؛ كان من أولياء الله، وتختلف مراتب الرجحان. ومن نقص في ميزان الشرع، فأولئك أهل الخسران، وتتفاوت خفَّتهم في الميزان، وأخسُّها مراتب الكفار، ولا تزال المراتب تتناقص حتى تنتهي إلى منزلة مرتكب أصغر الصغائر، فإذا رأيت إنساناً يطير في الهواء، ويمشي على الماء، أو يخبر بالمغيبات، ويخالف الشرع بارتكاب المحرَّمات بغير سبب محلِّل، أو يترك الواجبات بغير سبب مجوِّز؛ فأعلم: أنه شيطان، نصبه الله فتنةً للجهلة، وليس ذلك ببعيد من الأسباب؛ التي وصفها الله للضّلال، فإن الدَّجال يحيي، ويميت فتنةً لأهل الضلال، وكذلك يأتي الخربة، فتتبعه كنوزها كيعاسيب[1] النَّحل، وكذلك يظهر للناس: أنَّ معه جنةً، وناراً، فناره جنَّة، وجنَّته نار، وكذلك من يأكل الحيَّات، ويدخل النيران، فإنَّه مرتكب للحرام بأكل الحيَّات، وفاتنٌ للناس بدخول النيران؛ ليقتدوا به في ضلالته، ويتابعوه على جهالته[2].

ج ـ الطريق إلى حياة القلوب:

والطريق في إصلاح القلوب؛ التي تصلح الأجساد بصلاحها، وتفسد بفسادها؛ تطهيرها من كلِّ ما يبعد عن الله، وتزيينها بكلِّ ما يقرِّب إليه، ويزلفه لديه من الأحوال، والأقوال، والأعمال، وحسن الامال، ولزوم الإقبال عليه، والإصغاء إليه، والمثول بين يديه في كلِّ وقتٍ من الأوقات، وحالٍ من الأحوال، على حسب الإمكان من غير أداء إلى السامة، والملال، ومعرفة ذلك هي الملقبة بعلم الحقيقة، وليست الحقيقة خارجةً عن الشريعة، بل الشريعة طافحةٌ بإصلاح القلوب بالمعارف، والأحوال، والعزوم، والنيات، وغير ذلك ممَّا ذكرنا من أعمال القلوب، فمعرفة أحكام الظواهر معرفةٌ بِجِلِّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفةٌ بدِ الشريعة، ولا ينكر شيئاً منهما إلا كافرٌ أو فاجر، وقد يتشبَّه بالقوم من ليس منهم، ولا يقاربهم في شيءٍ من الصِّفات، وهم شرٌّ من قطَّاع الطريق، لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله تعالى، وقد اعتمدوا على كلماتٍ قبيحاتٍ، يطلقونها على الله، ويسيئون الأدب على الأنبياء، والرُّسل، وأتباع الأنبياء من العلماء، والأتقياء، وينهون من يصحبهم من السَّماع من الفقهاء، لعلمهم بأنَّ الفقهاء ينهون عن

---

[1] ذكور النحل

[2] قواعد الأحكام (194/2) وصفحات مطوية ص106.

صحبتهم، وعن سلوك طريقهم[1]. كما أن للعزِّ صفاتٌ كثيرةٌ تحدَّثْتُ عنها في ثنايا ترجمته، كالعلم، والفقه، والتوكُّل، والهيبة...إلخ.

تاسعاً: أهمُّ محاور التجديد عند الشيخ عز الدين بن عبد السلام:

ليس المراد بالتجديد تغيير حقائق الدِّين الثابتة القطعية؛ لتلائم أوضاع الناس، وأهواءهم، ولكنَّه تصحيح للمفاهيم المترسِّبة في أذهان الناس عن الدِّين، وتعديلٌ لأوضاعهم، وسلوكهم وفقاً لتعاليمه، وإرجاعه غضاً طرياً بعد أن تراكمت عليه البدع، والانحرافات. وكلُّ هذا ينطبق على الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقد أمات البدع، وأحيا السنن، كما حارب التقليد، وأحيا الاجتهاد، ومارس دور العالم المجاهد في قيادة الأمة، فالتفَّ الناس حوله، واتخذوه إماماً بدون منازع، وهو جديرٌ بذلك، فقد كان يدافع عن مصالح الأمة بيده، ولسانه، وبقلمه، ويحفظ حقوقها، ويدرأ عنها كلَّ المفاسد.

ومن نقاط التجديد عند الشيخ عز الدين بن عبد السَّلام:

1 . سعيه لتقنين أصول الفقه:

يظهر سعي الشيخ عز الدين لتقنين أصول الفقه فيما نلاحظه أثناء دراسة كتابه: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» من تفريعات، واستثناءات، وشواهد، وضوابط. انظر مثلاً حديثه عن النسيان، وما يتعلَّق به، وما يسقط به، ومالا يسقط به، وضابطه[2]. وكذلك في حديثه عن المشقَّة، وأنواعها، وضوابطها[3]. وكلُّ ما يحتاج إلى ضابط، فإنَّ الشيخ عز الدين لا يغفل عن تحديد ضابطه. فها هو يقول مثلاً: والضابط: أنَّ اختلال الشرائط، والأركان إذا وقع لضرورةٍ، أو حاجةٍ، فإن لم يختصَّ وجوبه بالصلاة كالستر، فإن كان في قومٍ يعمُّهم العري؛ فلا قضاء عليه لما فيه من مشقَّةٍ[4]، ويواصل في تحديد ضابط ما يتدارك إذا فات بعذرٍ، وما لا يتدارك مع قيام العذر. وهكذا توجَّهت همة الإمام في تجديد بناء العقلية الإسلامية بالتأكيد على العقلية الأصولية؛ التي لا ينبغي أن تفرِّق في الجزئيات وإنما تختصرها في كلياتٍ،

(1) قواعد الأحكام (194/2) وصفحات مطوية ص107.
(2) قواعد الأحكام (2/2 ، 3) ومقاصد الشريعة عند الإمام العز ص519.
(3) المصدر نفسه (7/2 ، 8 ، 12) والمصدر نفسه ص519.
(4) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص520.

وتضبطها في قواعد لمواجهة مستجدَّات الحياة مهمَّا تعقَّدت، وتشعَّبت. ويبدو هذا جلياً في الثروة الهائلة من القواعد التي خلَّفها الشيخ عز الدين ـ متناثرةً في كتبه. هذه القواعد التي تتوجَّه بالهمم، والأنظار نحو المستقبل لتواكب تطوُّر الحياة عن وعيٍ، وإدراكٍ، وتلبي احتياجات العصر المتغيِّرة عبر الزمان، والمتنوعة عبر المكان، وأمَّا الفروع فغالباً ما تعني بالماضي لتحكم له، أو عليه.

والقواعد التي ذكرها الشيخ عز الدين كثيرةٌ، نذكر منها نماذج:

أ ـ القواعد الفقهية:

ـ في جلب المصالح، ودرء المفاسد:

ـ تحصيل مصلحة الواجب أولى من دفع مفسدة المكروه.

تصرُّف الولاة، ونوابهم بما هو الأصلح للمَوْلِيّ عليه.

ـ لا يُقَدَّمُ في أيِّ ولاية إلا أقوم الناس بجلب مصالحها، ودرء مفاسدها.

ـ حفظ البعض أولى من تضييع الكلِّ.

ـ حفظ الموجود أولى من تحصيل المفقود.

ـ تحمُّل أخف المفسدتين دفعاً لأعظمهما.

ـ دفع الضرر أولى من جلب النفع.

ـ الأصل في الأموال التَّحريم ما لم يتحقَّق السبب المبيح[1].

ويمكن القول بأنَّ الإمام بن عبد السلام قد ألقى أوسع ما يمكن من الضوء على قاعدة: «جلب المصالح ودرء المفاسد». وأظهر باستقرائه جريانها في مسائل لا تحصى، وأحكام لا تعدُّ أصليُّها وفرعيُّها، حتى استطاع أن يرجع الفقه كلَّه إلى هذه القاعدة الشاملة الجامعة الأصلية: «اعتبار المصالح ودرء المفاسد».

ب ـ في مراعاة التخفيف، ورفع الحرج:

ـ لا يسقط المقدور عليه بالمعجوز عنه.

ـ الأشياء إذا ضاقت؛ اتسعت.

ـ قد وسع الشرع في النوافل ما لم يوسعه في الفرائض.

ـ الضرورات مناسبةٌ لإباحة المحظورات جلباً لمصلحتها.

(1) مقاصد الشريعة عند العز بن عبد السلام ص 521 نقلاً عن قواعد الأحكام.

. ما أُحِلَّ لضرورة يُقَدَّر بقدرها، ويزول بزوالها.

ج . في المقاصد، والوسائل:

. ما لا يتمُّ الواجب إلا به؛ فهو واجب.

. كلُّ ما كان أقرب إلى تحصيل المقصود من العقود؛ كان أولى بالحوز لقربه إلى تحصيل المقصود.

. لا تقدَّم التتمَّات، والتكملات على مقاصد الصلاة.

. الوسائل تسقط بسقوط المقاصد.

. كلُّ تصرف تقاعد عن تحصيل مقصوده؛ فهو باطل.

. إذا كان المطلوب محرماً؛ فسؤاله حرام.

. يجوز في التابع ما لا يجوز في المتبوع[1].

د . في مقاصد المكلفين:

. مقاصد الألفاظ على نية اللافظين، ويستثنى من ذلك اليمين؛ فإنه على نيَّة المستحلف.

. من أطلق لفظاً لا يعرف معناه؛ لم يؤاخذ بمقتضاه.

. العقود مبنية على مراعاة المقصود.

. الأغلب على الناس هو الجزم.

هـ في أمور متفرقة:

. المتوقَّع كالواقع.

. ما لا يمكن ضبطه، يجب الحمل على أقله.

. القليل يتبع الكثير في العقود.

. من لا يملك تصرفاً، لا يملك الإذن فيه. وذكر لهذه القاعدة مستثنيات...

. من ملك الإنشاء؛ ملك الإقرار.

. القواعد الأصولية:

أ . في الأحكام التكليفية:

. لا تكليف بما لا يتعلَّق به قدرة، ولا إرادة.

. لا يجوز تأخير حقٍّ يجب على الفور لأمر محتمل.

[1] المصدر نفسه ص522 نقلاً عن قواعد الأحكام.

. إذا كان المطلوب محرماً؛ فسؤاله حرام.

. لا يُترك الحقُّ لأجل الباطل.

ب . في تعليل الأحكام:

. الأصل أن تزول الأحكام بزوال عللها.

. الضرورات مناسبة لإباحة المحظورات جلباً لمصلحتها.

. في العموم والخصوص: دلالة العادات، وقرائن الأحوال بمنزلة صريح الأقوال في تخصيص العموم، وتقييد المطلق.

ج . في الدَّلالات:

. تقدير ما ظهر من القران أولى في بابه من كلِّ تقدير.

. يقدَّم من المحذوفات أخفُّها، وأحسنها، وأفصحها، وأشدُّها موافقةً للغرض.

. الكلام الصَّريح لا يفتقر إلى نيَّةٍ، لأنه بصراحته منصرفٌ إلى ما دلَّ عليه.

د . في سدِّ الذرائع:

. يُحتاط لدرء مفاسد الكراهة، والتحريم، كما يحتاط لجلب

مصالح النَّدب، والإيجاب. ولهذه القاعدة مستثنيات...

. تنزيل الموهوم (من المصالح والمفاسد بمنزلة المعلوم)[1].

هـ في العرف والعادة:

. دلالة العادات، وقرائن الأحوال بمنزلة صريح الأقوال في تخصيص العموم، وتقييد المطلق.

. ينزل الاقتضاء العُرفي الاقتضاء اللفظي.

. دلالة العرف كدلالة اللفظ.

و . في الاستصحاب:

. استصحاب الأصول، مثاله: من لزمه طهارة، أو .. ثُمَّ شكَّ في أداء ذلك؛ لزمه ذلك؛ لأنَّ الأصل بقاؤه في عهدته.

. الأصل براءة الذمة، مثاله: من شكَّ هل لزمه شيءٍ لا يلزمه شيءٌ من ذلك؛ لأن الأصل براءة ذمَّته.

---

(1) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص525 بالاعتماد على كتب الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وخصوصاً: «قواعد الأحكام».

ز . في الخروج من الخلاف:

. الخروج من الخلاف مستحبٌّ.

ح – في الاجتهاد: ويعدُّ الإمام أوَّلَ من فتح باب التأليف في القواعد، ثم تبعه مَنْ جاء بعده.

2 . النقطة الثانية:

من تجديدات الإمام: ربط الأصول بأهدافها الحيوية، وإعادة دمج ثمارها في واقع الحياة، فقد اتَّجه الإمام بأصول الفقه اتجاهاً عملياً بعيداً عن التكلُّف النظريّ؛ إذ إنَّه لا يؤمن بأنَّ هناك قضايا فلسفيةً نظريةً؛ لذا نجده يكثر من التمثيل، والتطبيقات الفقهية في قواعد الأحكام ومصالح الأنام خاصَّةً.

3 . النقطة الثالثة:

تقسيم المصالح، والمفاسد تقسيمات كثيرةً، الواقف على كلام العزِّ في كتابه: «قواعد الأحكام» يجده أفاض في المصلحة . وكذلك المفسدة . تقسيماً، وتمثيلاً، وأتى في هذا الموضوع بما لم يأت به غيره ممَّن تكلَّموا فيها، بل كثيرٌ منهم اتَّخذوه قدوةً، ورائداً في هذا الشأن[1].

ومما راعاه الإمام في تقسيمه عظم المصلحة، وشرّ المفسدة، فقدَّم من المصالح ما هو أعظم خيراً للمكلَّف، وأبعد من المفاسد ما هو أكثر شراً للمكلَّف، فجاء ترتيبه حسب نفع المكلف من حيث الإقدام على المصالح، والإحجام عن المفاسد، فدفع الكفر . مثلاً . في أعلى المراتب، ودفع القتل بعده، ثم تترتب فضائل الدفع بمراتب المدفوع في سوئه، وقبحه[2]، وعدَّ هذا معروفاً بالعضل قبل ورود الشرع. ومن أراد أن يعرف المصالح، والمفاسد راجحها من مرجوحها؛ فليعرض ذلك على عقله بتقدير أنَّ الشرع لم يرد به[3].

4 . النقطة الرابعة:

إبراز تعدُّد الوسائل، وتنوُّعها لتحقيق مقاصد الشريعة حتى لا يصيب المكلَّفَ ملل، ولا ضيقٌ، أو يعتريه

---

(1) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص256.

(2) شجرة المعارف ص227.

(3) قواعد الأحكام (8/1) ومقاصد الشريعة عند العز بن عبد السلام ص527.

فتورٌ في تحقيقها، والمحافظة عليها.

5 . النقطة الخامسة:

كثرة الطرق الموصلة إلى معرفة المصالح الدنيوية عند الإمام.

6 . النقطة السَّادسة:

النظرة الشاملة من الإمام لتحقيق المقاصد العامة؛ إذ يرى إصلاح القلوب، وتزكية النفوس، والتخلُّق بصفات الله، والاتِّصاف بها عاملٌ مهمٌّ في تحقيق المقاصد، لذا نجده يؤكِّد على ذلك كثيراً في مؤلفاته، ويعُدُّ: أن معيار التمييز بين قصد المكلف الصَّحيح وقصده السيأى هو مدى موافقة قصد المكلف لقصد الشارع.

7 . النقطة السابعة:

تحريره تحريراً شافياً كافياً لمسألة الثواب في المصائب، فكان بذلك أستاذاً لمن جاء بعده كالشاطبي.

8 . النقطة الثامنة:

اتسام منهج الإمام بالتغيير بالشمولية؛ بحيث نجده يتراوح بين اللِّين، والشدَّة، وبين الموعظة، والقتال؛ ذلك بأنَّ الإمام ينظر إلى كل الظروف؛ التي يحتمل أن تواجه الدَّاعية في دعوته لتطبيق شرع الله، وتحقيق مقاصده[1].

دروسٌ مهمَّة في مجال التجديد، والإصلاح:

لابدَّ من الاعتراف بجهود هذا الإمام، ولفت الأنظار إلى فضله العظيم في تأسيس المقاصد، واهتمامه بها، الأمر الذي مهد الطريق للذين جاؤوا بعده، ويمكن القول بأنَّ مشروعه هذا يعدُّ مشروعاً تجديدياً إحيائياً لترميم تصدُّعات الحياة الإسلامية، ولكن لم تتهيأ له الأجواء السياسية، والثقافية، والاجتماعية؛

(1) مقاصد الشريعة ص527.

ليعطي ثماره الحضارية تجديداً، ونهضةً؛ ذلك بأنَّ عصره عصر انقسامات، واستعانةٍ بالكفار، وإعانةٍ لهم على المسلمين.

ـ محاربة التقليد، والركود، والجمود، والدعوة إلى الاجتهاد، والتعمّق؛ الذي يستوعب كلَّ الحياة بجميع تطوراتها، ومتغيراتها الاجتماعية، والسياسية ـ من أسباب نهوض الأمة ـ ولا يتوصل إلى ذلك إلا بالتعمق في فهم النصوص الشرعية في أبعادها الأصولية، والفقهية، والمقاصدية.

ـ المقاصد العامة ثابتة لا تتغير، ولا تختلف باختلاف الأمم، والعوائد، والأزمنة؛ وإن اختلفت بعض مصالح الناس باختلاف الأزمان، والأعراف، ومن هنا كانت دعوة ابن عاشور لفهم مسائل أصول الفقه، وإعادة ذوبانها في بوتقة التدوين، وتسميتها بمقاصد الشَّريعة[1].

ـ تعدُّ مقاصد الشريعة الركن الثاني من أركان أصول الفقه ـ وركنه الأول هو: الفهم الذي يقوم على جانب الاستكشاف، والتجريد، والتعميم ـ وهي بمثابة تنزيل الأحكام المجرَّدة على واقع الأحداث، ومستجدَّات الأمور بمعطياتها الزمانية، والمكانية، وملابساتها الشَّخصية، فمثل ما يتوقف استنباط الأحكام الشرعية على الألفاظ؛ فإنه يتوقَّف على مقاصد الألفاظ[2]، ومع كون المقاصد مبحثاً أصولياً إلا أنه يكاد يكون مفقوداً في كتب الأصول، كمبحث مستقلٍّ قائمٍ بالذات إلا من بعض الإشارات في مباحث العلَّة، أو المناسبة، أو الاستصلاح، وإذا اعتبرنا أصول الفقه قانوناً يُتَوصَّل به إلى استنباط الأحكام، وكيفية التطبيق السَّليم لها؛ فإن الاهتمام اليوم بالمقاصد أكثر من ذي قبل يُعدُّ خطوةً نحو تلبية متطلَّبات الحياة، ومسايرة قضاياها المستجدَّة لاستيعاب جميع متغيراتها. ومن المعلوم: أنَّ التشريع وليد الحاجة، فما قام تشريع في أمَّةٍ، ولا نشر فيها قانون؛ إلا وقد قام في البلاد قبلهما حاجةٌ تدعو إليهما، فيأتي التشريع، ويُصاغ القانون على قدر تلك الحاجة[3] الداعية، والقوانين في جميع أنحاء العالم لا تلبث بعد مدَّةٍ من وضعها أن تصبح غير وافيةٍ بالنسبة لبعض الأحداث، فالاهتمام بالمقاصد يساعد على إيجاد الحلول المناسبة، وتكون مدخلاً في استنباط الأحكام، أو تطبيقها. وقد بيَّن ابن عاشور شدَّة حاجة الفقيه إلى معرفة المقاصد في مثل هذه الحالة، فقال: فاحتياجه فيها ظاهر، وهو الكفيل بدوام الشَّريعة الإسلامية للعصور، والأجيال التي أتت بعد عصر الشارع، والتي تأتي إلى انقضاء الدنيا[4].

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية ص8.
(2) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص 9.
(3) المدخل في علم أصول الفقه ص 5.
(4) مقاصد الشريعة الإسلامية ص15.

. المقاصد العامة متداخلةٌ، لا يكاد ينفك بعضها عن بعض، ولقد تبيَّن ـ للدارسين: أنها خادمةٌ لبعضها، فقد يكون المقصد وسيلةً مفضيةً إلى مقصد أعلى منه، كما أنَّ المقاصد الجزئية للأحكام تندرج بدورها في دوائر تنتهي إلى المقاصد الكلية؛ التي تنتهي بدورها إلى المقصد الأعلى، وهو تحقيق مصالح العباد في الدُّنيا، والمعاد.

. المقاصد العامة معانٍ حقيقيةٌ تهدف الشريعة إلى تحقيقها في واقع الحياة؛ حتى تكون على تلبية حاجيات المسلمين، وساعية نحو الأفضل في تنظيم مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وإلى تحقيق كلِّ ما ينفع الأفراد، والأمَّة من خيرٍ يعود على خدمة الضروريات، والحاجيات، والتحسينات.

. المقاصد العامة منسجمةٌ مع الفطرة، وهي أساسٌ هامٌّ بُني عليه هذا الدين؛ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[الروم: 30]. يؤكد عليه الإمام: أنَّ تقديم الأصلح، فالأصلح، ودرء الفاسد، فالأفسد مركوزٌ في طبائع العباد نظراً لهم من ربِّ الأرباب[1]

. ينبغي أن تكون الاجتهادات الفردية، أو الجماعية المؤقَّتة، أو الدَّائمة، مرتبطةً بواقع الحياة، وبمقاصد الشريعة الإسلامية كضابطٍ لهذه الاجتهادات من الزَّيغ، والانحراف، ولتكون أقرب ما تكون إلى الصَّواب، وأجدر بالتطبيق العملي في الحياة[2].

. ولابدَّ من ربط الاجتهاد بالمقاصد، ولذلك قرَّر الإمام ابن عبد السلام: أنَّ المقاصد مرجوعٌ إليها، وأنَّ كلَّ غافلٍ عنها في حكمه، أو فتواه يلزمه أن ينقضي حكمه، ويرجع عن فتواه، وأما من أفتى على ما تقتضي قواعد الشريعة، وإقامة مصالحها، فكيف يحتاج إلى نقل جزئيٍّ مخصوص من كليٍّ اتُّفق على إطلاقه من غير استثناء[3].

وربط الاجتهاد بالمقاصد يؤدِّي إلى عدَّة أمور، منها:

. إضفاء صفتي الشمولية، والاستمرارية على الشريعة، فلا تعرف حدودَ الزَّمان، ولا المكان.

. استعمال الأقيسة المعتبرة، والاستنتاجات العقلية السليمة بشكلٍ يتلاءم مع واقع النَّاس، ويراعي ظروفهم دون إبطالٍ للنَّصِّ، أو تحريفٍ له.

---

[1] قواعد الأحكام (5/1).

[2] مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص530.

[3] فتاوى سلطان العلماء ص145.

ـ تطلُّع المتعاملين فيما بينهم إلى أعلى مثل العدل، والإحسان، والتعاون لبلوغ المصلحة الشَّرعية من التعامل، فيتوفر بذلك جوٌّ من الثقة، والنية الحسنة بين الناس، ويُؤْمَن الغشُّ، والاحتكار، وأكل مال الغير بالباطل.

ـ الحدُّ من الخلافات المذهبية بين المسلمين التي منشؤها ـ في الغالب ـ سوء فهم مقاصد الشريعة، أو عدم فهمها على الإطلاق، وتوحيد المسلمين مقصدٌ من مقاصد هذا الدِّين، وضرورةٌ من ضرورياته.

ـ تحديد مفاهيم الحقوق، وتعيين مواقعها؛ حتى لا يبقى الحقُّ الشخصيُّ مطلقاً، ولا للأنانية البغيضة مكانٌ في نفوس الناس، ذلك بأن المقاصد العاملة شاملة، بحيث تندرج في مضمونها كافة الحقوق، ما كان منها ذا مضمونٍ ديني، أو خلقيٍّ، أو سياسيٍّ، أو اقتصاديٍّ، وما إلى ذلك، ممَّا يتعلق بجميع نواحي الحياة مادياً، ومعنوياً، فكانت كلُّ الحقوق الجديدة التي لم يعرفها العالم الغربي إلا في هذا العصر مقررةً في الشريعة الإسلامية فيما رسم من مقاصدها، وغاياتها، وشرع من وسائل علميةٍ لتحقيقها، وتنميتها، والمحافظة عليها.

ـ تنظيم حياة المجتمع البشري، والموازنة بين حاجيات الناس، فلا تطغى حاجة إنسان على اخر، ولا تصطدم حريته مع حرية غيره.

ـ إيجاد الحلول لكثير من المسائل الطارئة في حياتنا المعاصرة.

ـ علم المقاصد علمٌ دقيقٌ لا يخوض فيه إلا مَنْ لطف ذهنه، واستقام فهمه؛ لذا أكد الإمام العز بن عبد السلام على ضرورة الفهم السليم، والطبع المستقيم[1].

لا يزال فنُّ المقاصد مهمةً مطروحةً، تنتظر من ينجزها فعليَّاً، ويتوغَّل فيها إلى أقصى دلالاتها، فهي مادةٌ ثريَّةٌ، لا غنى عنها لأيِّ باحثٍ، أو مجتهدٍ، إلا أنَّ هذا الإنجاز يتطلَّب شيئاً من الإحاطة بثقافة العصر، وقيمةً خاصَّةً في المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية.

ـ ضرورة معرفة المقاصد، وإيضاحها في نسقٍ عقليٍّ، ومنهجٍ علميٍّ سليم، وأن يجعل منها مادةً تربوية علمية، يُرَبِّي عليها أبناء الأمة، وتقام على أساسها كياناتُهم النفسية، وغذاؤهم الفكريُّ. **ووضوح المقاصد يوفر لنا أمرين:**

ـ الوضوح في أولويات العمل الإسلامي، لتطبيق شرع الله في أرضه، وإعلاء كلمته.

(1) مقاصد الشريعة عند العز بن عبد السلام ص533.

ـ القضاء على الغبش، والتخبط، ممَّا لا يدع مجالاً، ولا موضعاً يعتدُّ به لنظر الجاهل بالنُّصوص، وأولوياتها، وغايتها.

ـ الشريعة تعمل على تحقيق المقاصد العامة، والمحافظة عليها، فهي:

ـ تحافظ على المصلحة أبداً وفق نظامٍ ثابتٍ لا يتأثر بوجود شخص، أو موته[1]. قال تعالى: ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144].

وسواءٌ أكانت هذه المصلحة عامَّةً، أم خاصَّةً، صغيرةً، أم كبيرة، فهي حفظٌ للحقِّ العام، والحقِّ الخاص في انٍ واحدٍ، وحتَّى إنّ الإنسان لا يعتبر حراً في نفسه، وأعضائه، فلا يحقُّ له أن يتصرف إلا وفق ما يرضي الله؛ لأن الحق في ذلك مشترك بينه وبين ربِّه على حدِّ قول الإمام[2]. ومن هنا يمكن القول بأنَّ المصالح متداخلة، فالمحافظة على المصلحة العامة محافظةٌ على مصلحة الأفراد، بحيث يستطيع كلُّ من يتمكَّن من الانتفاع بها أن ينتفع بها وفقاً للوجوه المعروفة شرعاً، وكذلك القول في المصلحة الخاصَّة، بها يتحقَّق صلاح المجتمع تبعاً؛ فحفظ مال اليتيم ـ مثلاً ـ حتى سنِّ الرشد، فيه نفعٌ لليتيم عند رشده؛ إذ يجد ماله كاملاً غير منقوص، وفيه نفعٌ لغيره سواءٌ أكان وارثاً، أم غير وارث بما يحقِّقه ذلك المال من نفع عامٍّ بإقامة مشاريع، أو صدقاتٍ خاصَّة، أو عامة، ولعلَّ هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: 5]. فعدَّ أموال اليتيم كأنها أموال مَنْ يرعاها. وكذلك في حفظ النفس فإنَّها مصلحةٌ، ولكن المحافظة عليها محافظةٌ على النظام العام، وإذا نزلت بالأمَّة نازلةٌ، أو طرأت بعض الطوارئ؛ وجب اعتبار مصالح هذه الأمة كلاً متكاملاً لا كدويلاتٍ متفرِّقةٍ.

وطريق المصالح أوسع طريق يسلكه الفقيه في تدبير أمور الأمَّة عند نوازلها، ونوائبها؛ إذا التبست عليه المسالك، كما قال ابن عاشور[3]. وتداخل المصالح يستدعي إيجاد قواعد، وخطط تشريعية يلتزمها المجتهد لإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا يُظلم أحدٌ، وأساس هذه القواعد هي: الموازنة بين ما يعود على صاحب الحقِّ من نفعٍ مشروع، وبين ما يلحق الغير من ضررٍ لازمٍ، أو فسادٍ ممنوع. وفي هذه الموازنة يتفاوت نظر النُّظَّار، وتتعارض فيه الخواطر، والأفكار؛ لذا أكد الإمام على الفهم السليم، والطبع المستقيم.

---

(1) المصدر نفسه ص533.

(2) قواعد الأحكام (111/1).

(3) مقاصد الشريعة الإسلامية ص87.

ولقد استطاع أن يستنبط من استقرائه للشريعة سلّماً للمصالح، يندرج بحسب اثارها في دنيا الناس، فتحدَّث عن الضروري، والحاجي، والتحسين، وبنى على ذلك مواقف عمليةً؛ حتى يتمكَّن الناس من الموازنة بين المصالح، وترتيبها، فلا يقعوا أمام طريقٍ مسدودٍ، يجعلهم مخيَّرين بين مصالح الدنيا، أو الاخرة، ولو وضع المسلمون هذا السُّلم نصب أعينهم قبل اتخاذ بعض القرارات، أو تبني بعض المواقف؛ لسلمت الأمَّة ـ الان ـ من كثيرٍ ممَّا هي فيه من المشاكل.

ـ كما إنَّها تراعي التخفيف، والتيسير، وترفع الحرج عن الناس باعتبارها شريعةً عمليَّةً واقعيةً تسعى إلى أن تكون واقعاً حيَّاً في نفوس أتباعها، ولا يتمُّ ذلك إلا بسلوك الرِّفق والتَّيسير، ذلك بأنَّ اليسر من الفطرة، والنفوس مجبولةٌ على حبِّ الرفق والنفورِ من الشدَّة والإعنات، ومن هنا كان الحرج مرفوعاً، والمشقة منضبطةً. وليس لمراد بنفي المشقة أن لا مشقة، ولا كلفة في شيءٍ من التكاليف الشرعية أصلاً، بل المراد أن تكون المشقة في حدود طاقة المكلَّفين، كما أنَّ الدعوة إلى التيسير ليست على إطلاقها، بل المراد أن يكون التيسير بقدرٍ لا يفضي إلى انخرام مقاصد الشريعة، وإلا لزم ارتفاع جميع التكاليف، أو أكثرها.

ـ وتقيم العدل، وتدعو إلى أن تكون إقامة العدل عن إدراكٍ، وتفهُّم عميقٍ لأبعاده، ومراميه، وللمسالك، والوسائل المفضية إليه، فمن راعى ذلك وُفِّق إلى جني ثماره؛ إذ لا ثمرة تجنى دون تصورٍ سليمٍ، وتنفيذ واعٍ حكيم، كما بيَّنت الشريعة: أنَّ عاقبة العدل كريمة، وعاقبة الظلم وخيمةٌ[1]، ولهذا نرى: أنَّ الله ينصر الدولة العادلة؛ وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدَّولة الظالمة؛ وإن كانت مؤمنة[2].

ـ شرعت الشريعة من الوسائل ما يتلاءم مع تحقيق مقاصدها، ويحافظ عليها، ولولا ذلك؛ لفات الكثير، ولذا كان اعتناؤها بالوسائل، كاعتنائها بالمقاصد أولاً[3]، واعتبرت الوسائل بمثابة التتمَّات، والتكملات[4]، وصارت كلُّ وسيلة تخدم مقصداً مطلوبة التحصيل، وكلُّ وسيلة لا تؤدي إلى ذلك مطلوبةُ الترك[5]، كما أنَّه قد تتَّحد الوسائل إلى المقصد الواحد، فيقدم أقواها تحصيلاً للمقصد المتوسل إليه، بحيث يحصل كاملاً ميسوراً يقدَّم على ما هو دونه في هذا التَّحصيل[6].

---

(1) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص 535.

(2) مجموع الفتاوى (26/28).

(3) الفروق (35/4) ومقاصد الشريعة عند الإمام العز ص 535.

(4) قواعد الأحكام (86/1) ومقاصد الشريعة ص535.

(5) مقاصد الشريعة عند الإمام العز ص535.

(6) المصدر نفسه ص535.

إنَّ الله ـ عز وجل ـ قد أكرم الأمة بهذا العالم الجليل صاحب الفهم السليم، والطبع المستقيم، والعلم المتين في مرحلةٍ حرجة من المراحل التي مرَّت بها الأمة الإسلامية، من تمزُّقٍ سياسيٍّ، وصراعٍ بين المشاريع، المشروع المغولي، والمشروع الصَّليبي، وبقايا المذهب الباطني، وكان الابتلاء الكبير بسقوط بغداد في أيدي التتار عام 656هـ، فكان للاجتهادات المقاصدية، وفقه المصالح، ومراتبه، والمفاسد ودرجاته أثرٌ كبير في نهوض الأمَّة من كبوتها، وإعادة دورها الحضاري، فبفضل الله، ثم جهود العلماء من أمثال العز بن عبد السلام، وسلاطين المماليك، استطاعت الأمة التَّصدي للمشروع المغولي، والمشروع الصليبي ثمَّ القضاء على المشروعين، وانتصار الإسلام العظيم في عهد المماليك. وهذا ما سوف نعرف تفاصيله ـ بإذن الله تعالى ـ في كتابنا عن المماليك.

عاشراً: التربية والاداب والتصوف عند العز بن عبد السلام:

1 ـ نماذج من المبادئ التربوية عند العز:

عرض العزُّ ـ رحمه الله تعالى ـ رؤيته لمبادئ التربية الإسلامية، المستقاة من كتاب الله، وسنة نبيه (ﷺ)، وتمثَّل جانباً من المنهج الفريد للتربية الإسلامية، وذكر العزُّ هذه المبادئ في مختلف كتبه، ويمكن جمعها، واستخلاص نظريةٍ متكاملةٍ منها. ونكتفي هنا، بالإشارة إلى جانبٍ منها للإرشاد إليها، والعمل بها، فمن ذلك:

أ ـ أصول التربية لمرحلة الحضانة:

حيث يقول: وذلك بحسن التربية، واللطف، والرفق، والحُنُو، ودفع المضار، وتحسين الحسن للصغير، وتقبيح القبيح، وتعليم الآداب، وتلقين الكتاب، وتعليم الخط، والعلم؛ إن كان متأهلاً لذلك، أو صناعة تليق بأمثاله، والأمر بالصَّوم، والصلاة، والنَّهي عن كلِّ خلقٍ ذميم، وعمل غير مستقيم واجتناب الضرب؛ إن تأدب بالقول، والتهديد، والضرب الخفيف الذي لا يصلح إلا به؛ إلا أنَّه إذا كان لا يصلحُ إلا بالضرب الشَّديد، فيجتنب الخفيف، والشديد[1].

(1) شجرة المعارف ص170 ، والعز بن عبد السلام للزحيلي ص305.

ب. تأديب الأهل باداب الشرع:

حيث يقول: تأديب الأهل إنعامٌ عليهم، وإحسانٌ إليهم، وفضيلة الدعاء إلى الاداب مأخوذةٌ من فضل ذلك الأدب، فأفضل التأديبات التأديب بأفضل القربات، وأشرف الطاعات وكذلك الأفضل، فالأفضل، والأمثل فالأمثل[1].

ج. الوسائل التربوية مع الأطفال والتدرُّج في الأحوال:

حيث يقول: وإذا تعلَّم الصبيُّ ما ينبغي أن يتعلَّمه من غير زجرٍ، فلا يُزجر، وإن لم يتعلَّم إلا بالزجر؛ زُجر، فإن لم ينجح فيه الزَّجر ضُرب ضرباً يحتمله مثله وتغلب فيه السَّلامة وإن لم ينزجر إلا بالضرب المبرّح حَرُم المبرّح لأدائه إلى قتله، ولم يجز غير المبرّح لأنَّه إنما جاز لكونه وسيلةً إلى الإصلاح، فإن لم يحصل الإصلاح حَرُمَ؛ لأنه إضرارٌ غير مفيد[2].

د. المزج بين قواعد الأصول ومبادئ التربية:

يقول في هذا المزج: إذا كان الصَّبيُّ لا يُصلحه إلا الضرب المبرّح، فهل يجوز ضربه تحصيلاً لمصلحة تأديبه؟ قلنا: لا يجوز ذلك، بل لا يجوز أن يضربه ضرباً غير مبرّح؛ لأن الضرب الذي لا يبرّح مفسدة، وإنما جاز لكونه وسيلة مصلحة التأديب، فإن لم يحصل التأديب سقط الضرب الخفيف، كما يسقط الضرب الشديد؛ لأن الوسائل تسقط بسقوط المفاسد[3].

هـ مداعبة الصبيان، والإحسان إلى البنات:

ومن هذه الأصول التربوية دعوةُ العزِّ إلى مداعبة الصبيان، فقد قال: مداعبةُ الصبيان بَسْطٌ لهم، وتطييبٌ لقلوبهم، وترويح عن نفوسهم. ومن هذه الأصول التربوية الدعوة إلى الإحسان إلى البنات، وإبطال عادات الجاهلية الجائرة، فقال العز: لما كان الحمقى ينفرون من البنات، ويكرهونهنَّ؛ عظَّم الله

[1] العز بن عبد السلام للزحيلي ص306.
[2] شجرة المعارف والأحوال ص264 والعز بن عبد السلام للزحيلي ص306.
[3] قواعد الأحكام (121/1).

ثواب من خرج من عادة الناس في ذلك بالصبر عليهنَّ، والإحسان إليهنَّ[1]. ثم يرشد العزُّ إلى أنَّ من الإحسان إلى البنات المبادرة بهنَّ إلى الأكفاء. فيقول: المبادرة إلى إنكاح الأكفاء، والرغبةُ فيهم مسارعةٌ إلى إحصان المرأة، ودفع العار عنها بالتزويج بالكفؤ، مع أنَّ البعل الصَّالح يدعوها إلى كلِّ خير، ويزعُها عن كلِّ شر[2].

وقام ببيان وظيفة المرأة، وأثرها في التربية، فقال: شفقة المرأة على مال زوجها أداءٌ للأمانة، وحُنُوها على طفلها حاملٌ على اللُّطف به، والإحسان إليه بحسن التَّغذية، والتربية[3].

و . الوازع الفطري والشرعي:

بيَّن العزُّ قوة الوازع الفطري عند الإنسان، وأنَّه أقوى من الوازع الشَّرعي، لذلك جاءت الأحكام الشرعية منسجمةً مع الفطرة، وأن الفطرة السليمة بها وازعٌ في داخلها لا يحتاج إلى توجيه الشرع؛ الذي جاء مطابقاً للواقع، والفطرة، فأسقط العدالة في بعض الولايات، فعقد العز رحمه الله فصلاً فيما تشترط فيه العدالة من الولايات، فقال: العدالة شرطٌ في بعض الولايات، وإنما شرطت لتكون وازعةً عن الخيانة، والتقصير في الولاية، ولا تشترط العدالة في ولاية القريب على الأموات في التجهيز، والدَّفن، والتكفين، والحمل، والتقدُّم في الصلاة؛ لأن فرط شفقة القريب، ورحمته على المبالغة في الغسل، والتكفين، والدعاء في الصَّلاة، وكذلك انكساره بالحزن على التضرُّع في دعاء الصلاة، فتكون العدالة في هذا الباب من التتمات، والتكملات، وكذلك ولاية النكاح لا تشترط فيها العدالة على قولٍ؛ لأن العدالة إنما شرطت لتنتزع الولي عن التقصير، والخيانة، وطبعُ الولي في النكاح يزعه عن التقصير، والخيانة في حقِّ موليته؛ لأنه لو وضعها في غير كفءٍ كان ذلك عاراً عليه، وعليها، وطبعه يزعه عمَّا يُدخله على نفسه، ووليته من الإضرار، والعار، وكذلك لو كان الوليُّ مستوراً، صحَّ النكاح في ظاهر الحكم اعتماداً على العدالة الظاهرة مع قوة الوازع[4]. ولذلك أمثلةٌ كثيرةٌ في الشرع كقبول إقرار الشخص على نفسه، ولو كان فاسقاً، أو كافراً.

---

(1) شجرة المعارف ص241.

(2) المصدر نفسه ص307.

(3) قواعد الأحكام (1/77 ، 78) وفتاوى سلطان العلماء ص151.

(4) شجرة المعارف ص 361 والعز بن عبد السلام للزحيلي ص 308.

ز ـ من القواعد التربوية في الدَّعوة إلى الله:

ذكر العزُّ بعض القواعد التربوية في الدَّعوة، والتي سار عليها الأنبياء، ويجب الاقتداء بهم، والالتزام فيها؛ لأنها المنهج الإلهي في الدَّعوة، فمن ذلك: الموعظة الحسنة، فيقول العزُّ: الموعظة الحسنة أدعى إلى قبول الحقِّ من الموعظة المنفِّرة، وما أغلظ الأنبياءُ في مواعظهم إلا لمعاندٍ جرئ على الله[1]. ومن ذلك؛ الدَّعوة باللِّين، وعدم الغلظة، فيقول العزُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: لِلّين مواطن لا يليق بها غيره، وللغلظة مواطنُ لا يُناسبها سواه، فمن استعمل أحد الأمرين في موضع الاخر؛ فقد أخطأ، .. وفيه تأليفٌ للقلوب، وتطييبٌ للنفوس، ومُوجِبٌ للاتفاق على مصالح الدارين[2]. ويذكر العز الأدلة، والأمثلة من القران الكريم ويؤكد العزُّ: أن الغضب لا يصح من الداعية إلا إذا انتهكت حرمات الله، ومقدساتُه، فيقول: العاقل يعرف مظانَّ الغضب لله، فيغضب فيها، ويعرف مظانَّ التلطف، فيتلطَّف فيها، ألا ترى: أنَّ موسى تلطَّف في أول الأمر بفرعون بقوله: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: 18] وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 104] وغير ذلك من القول اللين؛ الذي أُمر به، فلمَّا أصرَّ، وأظهر العناد مع تيقُّنه صدق موسى لقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: 14] ثم قال لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: 101] فأجابه بما يقتضيه الحال فيً ، فقال: أي: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: 102] أي: مهلكاً.

ثم يقول العزُّ: وكذلك جميع الرسل إذا استقرئ أمرهم في بَدء الإرسال؛ وجدت فيه الرفق، واللين، والشفقة على قومهم، فإذا أصروا، وعاندوا؛ أغلظوا لهم حينئذٍ؛ لما ركَّب الله تعالى في رسله من العقول الوافرة، والأحلام الكاملة بخلاف ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124] ، فإنَّه يلين في مواطن الإغلاظ، ويغلظ في مظانِّ اللين، معتقداً: أنه مقتدٍ بالرُّسل في غلظتهم، ولينهم، فنعوذ بالله من الجهل بمظانِّ خطابه، ومن تحريف كلامه وتنزيله على غيره مراده[3].

(1) شجرة المعارف ص 361 والعز بن عبد السلام للزحيلي ص 308.
(2) العز بن عبد السلام للزحيلي ص 309.
(3) العز بن عبد السلام للزحيلي ص 309.

ح ـ تغيير الأحكام بتغير الزَّمان:

يمزج العز ـ رحمه الله تعالى ـ في الأحكام التي تؤدي إلى التطوُّر، فإنَّه يعتدُّ به في تغيير الأحكام بتغيير الأزمان، فيقول: فلو حكم الحاكم في محلٍّ يسوغ فيه الاجتهاد، ثم تغيَّر اجتهادُه، فحكم بما أدَّى إليه اجتهاده ثانياً؛ كان ذلك قطعاً لما حكم به أوَّلاً، ولا يبطل الأوَّل بذلك، بل ينقطع من حين تغيُّر الاجتهاد، ويبقى الأول على ما كان عليه[1]. فالحكم الشَّرعي يتغيَّر في نفس المجتهد، ويشمل السابقة، واللاحقة، ولكن لا يبطل الحكم الأول إذا أفتى به المفتي، أو حكم به القاضي، بل يبقى الحكم الأول لوقته فقط، وللسائل أو المحكوم عليه به؛ لأن الاجتهاد لا يُنقض بمثله. وهذا ما قرَّره عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في ميراث المسألة المشتركة بعدما تغيَّر اجتهاده، وطلب أصحاب القضية الأولى بنقض اجتهاده السَّابق، فأجابهم بقوله المشهور: (تلك على ما قضينا، وهذه على ما نقضي). وهذا ما قرره الفقهاء في المذاهب الأربعة بعدم نقض الحكم السابق إذا كان مبنياً على اجتهادٍ، ثم تغيَّر الاجتهاد. وهو المقرَّر في جميع محاكم النقض في العالم[2].

وهكذا نلاحظ المبادئ التربوية في فكر العزِّ، وذهنه، وكتبه، وكيف يراعي الفطرة الإنسانيَّة، ويعتدُّ بالوازع الفطريِّ، وأنَّه أصيلٌ في الإنسان، وله بواعثُه الذاتيَّة، ودوافعه الخفيَّة؛ التي تحرك صاحبها تلقائياً في معظم الحالات، لذلك يخفِّف الشرع من توجيهه فيها معتبراً: أن الوازع الفطريَّ المطبوع عليه الإنسان داخلياً أقوى من الوازع الشَّرعي، لذلك اعتبر الشَّرع الحكيم تناول الطعام، والشراب، والشِّبع، وغيرها مجرَّد أحكام مباحة، أو مندوبة، مع أنها ضروريةٌ للحياة؛ لأن الوازع الفطري كفيلٌ بتأمينها، ورعايتها، وهذا ما أكَّده الشاطبيُّ فيما بعد في كتابه: «الموافقات»[3].

---

[1] قواعد الأحكام (48/2).

[2] العز بن عبد السلام للزحيلي ص310.

[3] المصدر نفسه ص310.

ط . إنسانية الإنسان عند العزِّ بن عبد السلام:

وضع الشيخ عز الدين نصب عينه شيئاً واحداً، جنَّد فقهه لتربيته، وتهذيبه، وهو إنسانية الإنسان، فأحاطها بالرعاية، والرفق، والتستر، وأخيراً.. بالجمال[1]، ونذكِّر أيضاً بكتاب العز ـ رحمه الله تعالى ـ: «أحوال الناس» فهو في التربية الإسلامية للرُّوح، والنفس، ومراقبة الله تعالى، والخوف منه، والاستعداد لملاقاته، ومحاسبة النفس في أعمالها، وخطواتها محاسبةً ذاتية، ورقابةً داخلية ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ *﴾ [القيامة: 14] ليزن أعماله قبل أن توزن، ويقدر نتائجه سلفاً؛ ليحتاط عند التقصير، ويرتدع عند الندم، ويزداد في العمل الطيب. ويقول العزُّ فيه: ما من برٍّ، ولا فاجرٍ، ومؤمنٍ، وكافرٍ إلا ينظر في البرزخ إلى منزله بكرةً، وعشيةً: إن كان من أهل النار؛ فمن أهل النار، وإن كان من أهل الجنة؛ فمن أهل الجنة[2]. ويقول: من الغموم، والالام، وأسبابها، وأفراحها أفضل الأفراح، ولذاتها أفضل اللذات وأفضل لذةٍ رضا الرب، والنظر إليه، وسماع كلامه، والأنس بقربه، وجواره[3].

2 . التصوُّف عند العز بن عبد السلام:

اتَّفقت اراء العلماء، والكتاب، والمصنِّفين قديماً، وحديثاً على معظم أخبار العزِّ، وصفاته، وأحواله، وكتبه، ولكنَّهم اختلفوا اختلافاً واسعاً في وصفه بالتصوف، أو براءته منه، وتشعب القول في ذلك؛ لاختلاف الناس في حقيقة التصوُّف، ومشروعيته، واتفاقه مع الإسلام، أو مخالفته، واختلاف صورته في التاريخ الإسلامي، ووجود الجذور الأصلية لمعانيه في القران، والسنة من جهة، وخلطه بالمصطلحات، والمبادئ الدخيلة من جهة ثانية، والتستُّر وراءه من ذوي النوايا الخبيثة، والماكرين، والحاقدين من جهةٍ ثالثة، وهل تَتَّفق هذه الأحوال مع حياة العزِّ، ومواقفه، وكتبه؟.

وذهب معظم المؤرخين القُدامى، وبعض المعاصرين إلى إثبات نسبة التصوف للعزِّ، واتفاقه مع الكتاب، والسنة، واستندوا إلى أدلةٍ كثيرةٍ، أهمُّها: صلته بكبار علماء الصُّوفية في زمانه، كأبي الحسن الشاذلي، والسَّهروردي، وحضور مجالسهم، وقراءة كتب الصُّوفية، وممارسته لبعض أعمالهم[4]. ونقل ابن السبكي:

---

(1) عز الدين بن عبد السلام ، بائع الملوك ، لمحمد حسن ص141.

(2) أحوال الناس ص 46 والعز بن عبد السلام للزحيلي ص 311.

(3) العز بن عبد السلام للزحيلي ص 311.

(4) المصدر للزحيلي ص 318.

أنَّ الشيخ عز الدين لبس خرقة التصوف من الشيخ السَّهروردي، وأخذ عنه، وذكر: أنَّه كان يقرأ بين يديه «رسالة القشيري». ثم قال ابن السبكي: وقد كان للشيخ عز الدين اليد الطولى في التصوُّف، وتصانيفه قاضيةٌ بذلك[1]. وقال ابن العماد الحنبلي: وله مكاشفاتٌ. وقال الذهبي: كان يحضر السَّماع، ويرقص[2]. وقال السيوطي: وله كراماتٌ كثيرة، ولبس خرقة التصوف من الشهاب السَّهروردي، وكان يحضر عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ويسمع كلامه في الحقيقة، ويعظِّمُه[3].

وذهب فريق من المعاصرين إلى نفي التصوُّف عن العزِّ بن عبد السلام، رحمه الله تعالى! وأنَّ التصوف يتنافى مع عقلية العز الفكرية، والاجتهادية، القائمة على إعمال العقل في النصوص، وتتعارض مع سيرة العز في الحياة، ومواقفه، وفتاويه، وكتبه، ومصنفاته. ومما يؤيِّد أصحاب هذا الرأي ما صدر عن العز ـ رحمه الله تعالى ـ من شدةٍ، وصراحةٍ في بعض أمور التصوُّف، فمثلاً قوله عن بعض الدُّخلاء: قد يتشبه بالقوم من ليس منهم، ولا يقاربهم في شيء من الصفات، وهم شرٌّ من قطَّاع الطريق؛ لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله تعالى، وقد اعتمدوا على كلماتٍ قبيحة[4]. ويندِّد العز ـ رحمه الله ـ بكثيرٍ من اصطلاحات الصُّوفية، والرموز التي يستعملها المتصوِّفة، ويُشكل ظاهرها، ويخفى باطنها، فيقول: ولهم ألفاظ يستطعمها سامعها، منها: التحلِّي، وهو عبارة عن العلم، والعرفان، وكذلك المشاهدة. ومنها: الذوق، وهو عبارة عن وحدات لذة الأحوال، ووقع التعظيم، والإجلال. ومنها: الحجاب، وهو عبارة عن الجهل، والغفلة، والنسيان. ومنها: قولهم: قال لي ربي، وإنما ذلك عبارة عن القول بلسان الحال دون لسان المقال، كما قالت العرب: امتلأ الحوض. ومنها: قولهم: القلب بيت الرب، ومعناه: القلب بيت معرفة الرب، شبهوا حلول المعارف بالقلوب بحلول الأشخاص في البيوت. ومنها: القرب، وهو عبارة عن الأسباب الموجبة للإبعاد. ومنها: المجالسة، وهو عبارة عن لذةٍ يخلقها الربُّ ـ سبحانه وتعالى ـ بمجالسه لِلذة الأنس، وبمجالسة الأكابر[5]. ويقول: الفناء الناشئ عن الاستغراق ببعض هذه الأحوال، وحقيقة الفناء غفلةٌ، وغيبةٌ[6].

---

(1) العز بن عبد السلام للزحيلي ص 318.

(2) شذرات الذهب نقلاً عن العز بن عبد السلام للزحيلي ص 318.

(3) حسن المحاضرة (315/1) والعز بن عبد السلام للزحيلي ص 319.

(4) العز بن عبد السلام للزحيلي ص323 وقواعد الأحكام (212/2).

(5) قواعد الأحكام (219/2 ، 220) والعز بن عبد السلام للزحيلي ص223.

(6) المصدر نفسه (214/2).

ويصل العز قمة الإنكار، والاستهجان لما يصدر عن المتصوِّفة من الرَّقص، والسماع، فيقول: وأما الرَّقص، والتصفيق؛ فخفةٌ، ورعونةٌ مشبهةٌ لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعنٌ، أو متصنِّعٌ كذاب، وكيف يتأتى الرَّقص المتزن بأوزان الغناء ممَّن طاش لبُّه، وذهب قلبه، وقد قال رسول الله (ﷺ): «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم!» ولم يكن أحدٌ من هؤلاء الذين يقتدى بهم يفعل شيئاً من ذلك، وإنما استحوذ الشيطان على قوم، يظنُّون: أنَّ طربهم عند السماع إنَّما هو متعلقٌ بالله، عز وجل، ولقد مالوا فيما قالوا، وكذبوا فيما ادَّعوا... ومن هاب الإله، وأدرك شيئاً من تعظيمه؛ لم يُتصوَّر منه رقصٌ، ولا تصفيقٌ، ولا يصدر التَّصفيقُ، والرقصُ إلا من غبيٍّ جاهلٍ، ولا يصدران من عاقل فاضل[1].

ولما سئل العز عن الإنشاد، والتواجد، والرقص، والسماع؛ أجاب: الرَّقص بدعةٌ، لا يتعاطاه إلا ناقص العقل، ولا يصلح إلا للنساء. وأمَّا سماع الإنسان المحرِّك للأحوال السَّنيَّة بما يتعلَّق بالأخرة؛ فلا بأس به، بل يندب إليه عند الفتور، وسامة القلوب. وهذا شبيهٌ بما يعرف في يومنا هذا بالأناشيد الإسلاميَّة؛ لأنَّ الوسائل إلى المندوب مندوبةٌ، والسعادة كلُّها في اتباع الرسول (ﷺ) واقتفاء أصحابه الذين شهد لهم بأنهم خير القرون، ولا يحضر السماع من قلبه هوىً خبيث، فإن السَّماع يحرك ما في القلوب من هوىً مكروه، أو محبوبٍ. والسَّماع يختلف باختلاف السامعين، والمسموع منهم، وهم أقسام[2].

إنَّ العزَّ بن عبد السلام امتدادٌ لمدارس التزكية السنية التي سبقه إليها كبار الصحابة، وسادة التابعين مِنْ أمثال الحسن البصري، ومالك بن دينار، وأيوب السختياني، واستمرت مدرسة التصوف السُّنِّيِّ إلى يومنا هذا، فهي تهتمُّ بالورع، والتقوى، والزهد، والثقة بالله، والاعتماد عليه، ودوام الصلة به، وشدَّة مراقبة العبد لربه في الخلوة، والجلوة، والسرِّ، والعلن، ولا يقصد إلا مرضاته في كلِّ ما يصدر عنه. ولقد ضرب العزُّ بن عبد السلام في عصره أروع الأمثلة لهذه المعاني الإسلامية الثابتة في القران، والتي طبَّقها رسول الله (ﷺ) في حياته، وعبادته، وتربيته، وسار عليها معظم السَّلف الصالح، وأولياء الله، وعبَّاده الأتقياء، ويوافق عليها كلُّ مسلم يزداد في هذا المجال، وازداد في هذا المجال تعلقاً، والتزاما، وقربا، وشوقاً كلما تقدمت بن السن، وعرف حقيقة الحياة، وجرب ما فيها، وأيقن مصيره إلى لقاء الله وحسابه، وجنته ورضوانه.

---

(1) قواعد الأحكام (2/220 - 221) والعز بن عبد السلام ص324.

(2) فتاوى سلطان العلماء ص 324.

وهذه المعاني الإسلامية الثابتة، والمهمة، والجليلة يدعو غليها كل عالم عامل، ومسلم صادق، وداعية مخلص. وفي هذا الإطار صنف العز كتبه، التي وصفت من غيره، وصنف بعنوان: "كتب التصوف". كما كثرت هذه المعاني في سائر كتبه: في التفسير والعقيدة، والفقه، وأصول الفقه، والتربية، وفضائل الأعمال، وفي الاخلاق، والأدب؛ لأنها انعكاس عن سريرته، وما يكنه في قلبه، وما يلتزمه في حياته، وسلوكه، كما أن المسلم الصادق يقدر من يتصف بهذه المعاني الإسلامية السامية، ويحترم أشخاصهم ويتقرب منهم، ويثني عليهم.

ومن هذا المنطق نعلل احترام العز لمعاصريه من علماء التصوف، كالسهروردي، والشاذلي، وأبي العباس المرسي، وصداقته لهم، والتقاءه معهم، وحضور مجالسهم، ومشاركتهم في بعض الجوانب التربوية، والسلوكية، بل حتى في قبول الشارات الشكلية التي يتعلقون بها، ما دامت لا تخالف الكتاب، والسنة، ومن هذا المنطلق نقبل جمع ما ذكره مترجمو العز باعتباره متصوفاً، وأنه كان يقرأ "رسالة القشيري" في التصوف، وأن له اليد الطولى في التصوف وتصانيفه قاضية بذلك، وإن اريد بالتصوف معناه الاصطلاحي، كمذهب، وطريقة بحسب السائد، والمعروف والمألوف في العصور المتأخرة، فنستطيع أن نجزم أنَّ الشيخ العز لم يكن متصوفاً، ولا صوفياً على الإطلاق، ونستدل على ذلك بأمورٍ كثيرةٍ، وواضحة، منها: أنَّ كتب العز الموسومة بالتصوُّف هي بذاتها إما للردِّ على المفاهيم الباطلة التي تسربت باسم الصوفية إلى الإسلام، فهدم العزُّ وجودها، ونسبتها إلى الدين، والإسلام، كالقطب، والأبدال، وإما لتقريب المتصوفة إلى الطريق الصحيح، والإيمان السليم، والعمل بالشرع، مثل كتابه: «مسائل الطريقة» إن صحت نسبته إليه، فلعلَّه أراد أن يأخذ بيدهم ـ وهو يحبُّهم، ويحترمهم ـ إلى الطريق الأقوم، والمنهج السديد، والالتزام بالكتاب، والسنَّة، والسيرة، وأعمال السَّلف الصالح، وإما للتخفيف من غلواء المتصوفة، لبيان المعنى الصحيح للمصطلحات الشَّرعية؛ التي عرضها الحارث المحاسبي في كتابه: «مقاصد الرعاية»[1].

والخلاصة: إننا نرى أنَّ العزَّ كان صوفياً حسب قواعد الشرع، ومن الناحية الفكرية، والقلبية، والروحية، وبحسب المعنى العام الوارد في الشَّرع عن هذا الجانب التربوي في الإسلام، وأنه ملتزم بكلِّ ما جاء في القران، والسنَّة من التربية الروحية، والقلبية، والتهذيب النفسي، ولم يكن متصوِّفاً بالمعنى الاصطلاحي، والعرفي، ولم يلتزم بطريقةٍ يلتزم طقوسها، ومصطلحاتها، وقواعدها، ولم يدخل في المتاهات الغامضة التي

[1] العز بن عبد السلام للزحيلي ص326 ، 327 ، 328.

تحتمل الظاهر، والباطن، والصَّحيح، والفاسد، وفيها رُكامٌ طيِّبٌ، وخبيث، وغثٌّ، وسمين، وبساطةٌ، وغموض، وشك، وحقيقةٌ، وارتياب، وطعنٌ، أو سوء ظنٍّ بإطلاق الكلمات مهما كان معناها، ومهما كان المراد منها... إلخ فالعزُّ مع الشرع، والدِّين، والنصوص، والأحكام، فما أجازه الشَّرع؛ قال بحله؛ ولو كان سماعاً، وما حرَّمه الشرع؛ قال بمنعه، ووقف بشكلٍ صلبٍ في وجه البدع، والمنكرات، وفي وجه التطرُّف، والمغالاة التي تسرَّبت إلى المسلمين بصورٍ عديدة[1].

فالصُّوفيُّ عند الشيخ عز الدين بن عبد السلام: مَنْ صفت سريرتُه، ونارت بصيرتُه، وعلت همَّته، ونطقت حكمتُه، وارتفعت رتبتُه، وتعلَّم العلم، وعلَّمه، وطلبه من الله لا من غيره. وأن يكون متَّصفاً بالرِّضا، والسير في الطريق، ومراعاة الرفيق، والهدى، والتَّحقيق، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، وإقالة العثرات، وأن يكون مجتهداً في العمل الصالح المرفوع، وأن يكون متأدباً مع شيخه، وإخوانه، حافظاً، غالباً على شيطانه[2].

وملخَّص القول في تصوُّف العزِّ بن عبد السلام في النقاط الاتية:

. درس الشيخ عز الدين التصوُّف كعلم من علوم الشريعة في مرحلة الطَّلب، واستفاد منه كثيراً.

. قام العز بحركة إصلاح في التصوُّف عموماً، وصحَّح الكثير من المفاهيم الموهمة، وجعل مقياسه الشرع الإسلامي في قبول مفردات التصوُّف.

. رفض الشيخ عز الدين بعض السلوكيات؛ التي يمارسها بعض مدَّعي التصوف، كالرَّقص، وغيرها من الأمور.

. يعتبر تصوُّف العزِّ بن عبد السلام امتداداً للتصوُّف السُّنِّي الذي مارسه الحسن البصري، ومالك بن دينار، وغيرهم كثير.

وقد قام الأستاذ محمد حسن عبد الله بدراسةٍ جميلة عن عز الدين بن عبد السلام في كتابه: «عز الدين بن عبد السلام بائع الملوك» وانتهى إلى القول بأن العزَّ بن عبد السلام لم ينتسب إلى طريقةٍ صوفيَّةٍ مما شاع في عصره، ولم يلبس خرقة الصُّوفية من السَّهروردي، ولم يبايع الشاذلي وإن كان صديقاً له، وإنما كان متصوِّفاً على طريقة السَّلف في التصوُّف، وكان بعيداً عن الرَّقص، والتواجد، والتصفيق؛

(1) العز بن عبد السلام للزحيلي ص329.

(2) العز بن عبد السلام للوهيبي ص97 ومسائل الطريقة في علم الحقيقة ص37.

لأنَّ ذلك خفةٌ، ورعونةٌ. لقد كان العزُّ رجلَ كفاحٍ ونضالٍ، وكان يهتمُّ بالتصوف السُّنيّ من طهارة القلب، وصفاء النفس، وخلوص النية لله تعالى، وتخلية الذكر من غير الله، وتحليته بذكره[1].

3 . جهاد العز بن عبد السلام:

نال الشيخ العز بن عبد السلام شرف الجهاد، وكان يدعو إليه، ويكتبه في كتبه، ورسائله، وهو القائل في رسالة الاعتقاد: الجهاد ضربان، ضربٌ بالجدل والبيان، وضرب بالسَّيف والسِّنان.. ولكن قد أمرنا الله بالجهاد في نصرة دينه، إلا أنَّ سلاح العالم علمُه، ولسانه، كما أنَّ سلاح الملك سيفه، وسنانه، فكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم عن الملحدين والمشركين، لا يجوز للعلماء إغماد أسلحتهم عن الزائغين، والمبتدعين، فمن ناضل عن الله، وأظهر دين الله؛ كان جديراً أن يحرسه الله بعينه التي لا تنام، ويُعزَّه بعزِّه الذي لا يُضام، ويحوطه بركنه الذي لا يُرام، ويحفظه من جميع الأنام.

وعلى الجملة ينبغي لكلِّ عالم إذا أُذلَّ الحقُّ، وأُخِيد الصواب أن يبذل جُهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذل، والخمول أولى منهما... والمخاطرة بالنفوس مشروعةٌ في إعزاز الدين، ولذلك يجوز للبطل من المسلمين أن ينغمر في صفوف المشركين، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة[2]. وقام العز بجهاد العلم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعرَّض نفسه للمخاطر الشديدة، والأهوال العجيبة، كما مرَّ معنا . وعُزل بسبب ذلك، وكان مجاهداً جريئاً، ومناظراً قوياً، ومدافعاً صلباً عن دين الله، وشرعه، مطبِّقاً حديث رسول الله (ﷺ): الذي رواه أبو الوليد عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله (ﷺ) على السَّمع، والطَّاعة في العُسر، واليسر، والمنشط، والمكره، وعلى أثرةٍ علينا، وألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول الحقَّ أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم[3].

وجاهد الشيخ عز الدين في الحياة، والمجتمع لإقامة شرع الله، ودينه، وحارب البدع، ووقف في وجه الفرق المنحرفة، والآراء الباطلة، والعقائد الضالَّة، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ونصح أئمَّة المسلمين، وعامَّتهم، كما مرَّ معنا، وجاهد أمام الظلمة، والطغاة، والمستبدِّين، وخاطر بنفسه تطبيقاً لما قال، وامتثالاً

---

[1] عز الدين بن عبد السلام ، عبد الرحمن مراد ص63 إلى 65.

[2] طبقات الشافعية الكبرى (223/8، 226) وما بعدها.

[3] البخاري، كتاب الفتن (2588/6).

للحديث الشريف؛ الذي رواه جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي (ﷺ) قال: «سيِّدُ الشُّهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ، فأمره ونهاه، فقتله»[1]. وقد قام الشيخ العز بن عبد السلام بهذا الجهاد، والنصح للحكام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولم يعلن الثورة عليهم، ولم يطلب العصيان ضدَّهم ما داموا مسلمين، يقيمون الصلاة، ويطبقون الإسلام مع الخطأ، أو الانحراف[2].

ويطول بنا الحديث عن جهاد العزِّ بعلمه، وبيانه، ولسانه، وقلمه، فالعزُّ ـ رحمه الله ـ لم يتأخَّر عن الدَّعوة إلى الجهاد، والمشاركة في الإعداد له عندما يهدِّد العدو بلاد المسلمين، وأرضهم، وأنفسهم، وأموالهم، ودينهم، وقد رأيناه لبَّى دعوة قطز، وهو في الثمانين من عمره، للمشاورة في لقاء التتار، ودعوة المسلمين لذلك، وبيان الحكم الشرعي، وكان الاعتماد في الاجتماع على فتوى العز ـ رحمه الله تعالى ـ التي تحقَّق أثرها بالنصر المبين في عين جالوت على التتار.

ولما كانت همَّة العزِّ أقوى، وجسمه أصلب، وسنُّه أقل بقليل؛ شارك عملياً في الجهاد، والقتال، وملاقاة الصليبيين؛ الذين اتجهوا لاحتلال دمياط وسائر مصر بعد أن وصلوا إلى المنصورة، واستظهروا على المسلمين، فهب الجيش المسلم في مصر لمواجهة الغزاة[3]. قال ابن السبكي: وكان الشيخ مع العسكر، وقويت الريح، فلمَّا رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح، يا ريح خزيهم عدَّة مرات، فعادت الريح على مراكب الفرنج، فكسرتها، وكان الفتح، وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ: الحمد لله الذي أرانا في أمَّة محمد (ﷺ) رجل اسخَّر له الريح[4].وكان النَّصر المبين للمسلمين.

واعتبر المؤرخون هذه الصيحة من كرامات العز، رحمه الله[5]. والكرامة في معتقد أهل السنة تظهر على يد أولياء الله الصالحين تكريماً من الله تعالى لهم. ومصدر الكرامة هو الإيمان الصادق، والإخلاص الكامل، والعبودية التامة، والاعتماد الحقيقي على الله تعالى، والالتزام بشرع الله تعالى، وكثرة التقرب إليه. قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ **[يونس: 62-64]** .. وهذا ما أكَّده رسول الله (ﷺ) في الحديث القدسي عن رب العزَّة فيما رواه البخاري عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً؛ فقد

[1] المستدرك، صحيح الإسناد (195/3).
[2] العز بن عبد السلام للزحيلي ص123.
[3] العز بن عبد السلام للزحيلي ص124.
[4] حسن المحاضرة (35/2) العز بن عبد السلام للزحيلي ص124.
[5] العز بن عبد السلام للزحيلي ص124.

اذنته بالحرب: وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مِمَّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني؛ لأعطينه، ولئن استعاذني؛ لا عيذنه»[1].

وكان العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ لا يبغي إلا رضاء الله تعالى ـ نحسبه كذلك؛ ولا نزكِّي على الله أحداً ـ ولا يخاف إلا منه، ولا يتوكَّل إلا عليه، فكان الله معه، وكان الله له حافظاً، ومعيناً، وكان الله عنه مدافعاً من أذى المعتدين، وتسلط الظالمين، وسطوة الحكام، والأمراء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38]. وكفاه الله هَّم الدنيا، والاخرة ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً *﴾[النساء: 81] ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا*﴾[الأحزاب: 39].

وكان العزُّ حريصاً على تطبيق شرع الله، والسير على جادته وتنفيذ ما أمر ب، فكان ينظر بنور الله، ويبصر ببصر الله، ويتكلم بقوَّة الله، وجبروته، ويبطش بيد الله، ويمشي في سبيل الله، وعلى بركة الله، كما جاء في الحديث القدسي السَّابق. ومن هنا أكرمه الله تعالى بأمورٍ خارقة للعادة، مرَّ معنا قصته مع اللُّصوص في البستان، وقصَّته في تغيير اتجاه الرِّيح بسبب دعائه في معركة دمياط ضدَّ الفرنج، وقصَّته مع نائب السَّلطنة الذي جاء العزَّ وهو شاهر السيف؛ ليقتله، فحين وقع بصره على النائب؛ يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت فرائصه، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعوَ له[2].

ونضيف هنا قصة جديدةً، وطريفةً، نقلها ابن السبكي، فقال: كان في الرِّيف شخصٌ، يقال له: عبد الله البلتاجي من أولياء الله، وكانت بينه وبين الشيخ عز الدين صداقةٌ، وكان يُهْدى إليه في كلِّ عام، فأرسل إليه مرَّةً جمل هدية، ومن جملته وعاءٌ فيه جُبْنٌ، فلمَّا وصل الرسول إلى باب القاهرة؛ انكسر ذلك الوعاء، وتبدَّد ما فيه، فتألَّم الرسول لذلك، فراه شخصٌ ذميٌّ، فقال له: لم تتألم؟ عندي ما هو خير منه! قال الرسول: فاشتريت منه بَدَله، وجئت، فما كان إلا أن وصلت إلى باب الشيخ، ولم يعلم بي، ولا بما جرى لي غير الله تعالى، وإذا بشخصٍ نزل من الشيخ، وقال: اصعد بما جئت به، فناولته شيئاً فشيئاً إلى أن سلَّمته ذلك الجبن، فطلع، ثم نزل، فقلت: أعطيته للشيخ؟ فقال: أخذ الجميع إلا الجبْن، ووعاءه، فإنه قال لي: ضعه على الباب، فلما طلعت أنا، قال لي: يا وليد ليس تفعل هذا؟ إنَّ المرأة التي حَلَبت لبن هذا الجبن كانت يدُها متنجِّسة بالخنزير! وردَّه، وقال: سلِّم على أخي[3].

---

[1] صحيح البخاري (2384/5) ، كتاب الرقاق ، باب التواضع.

[2] العز بن عبد السلام، للزحيلي ص127 وطبقات الشافعية (217/8).

[3] طبقات الشافعية الكبرى (213/8) والعز بن عبد السلام ص128.

4. وفاته:

بعد عمرٍ مديدٍ ناهز الثالثة والثمانين عاماً في الجهاد في سبيل الله، ونصرة الإسلام، ونشر دعوته توفي العز بن عبد السلام في العاشر من جمادى الأولى سنة ستين وستمئة هجرية 660هـ. وقد ذكر ابن السبكي عن ابن العزِّ الشيخ عبد اللطيف: أن وفاة والده في التاسع من جمادى الأولى 660هـ وذكر في روايةٍ أخرى: أنَّها في 10 جمادى 660هـ[1]. وهو ما عليه عامَّة المؤرخين. وهناك روايةٌ لتلميذ العزِّ الدمياطي توفِّق بين الروايتين، وهي قوله: توفي العزُّ يوم السبت 9 جمادى الأولى 660هـ ودفن من الغد في سفح المقطَّم، حضرتُ ذلك، وكان درسه الأخير الذي ألقاه على الناس تفسير قول الله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ..﴾ [2]قال أبو شامة. وهو تلميذ العز أيضاً، ومؤرِّخ حياته .: يوم الأحد عاشر جمادى، أو حادي عشر جمادى الأولى. توفي العز بن عبد السلام في مصر، وعمل عزاؤه في جامع العقيبة يوم الإثنين 25 جمادى الأولى سنة 660هـ، وحضر جنازته الخاصُّ، والعامُّ، وصلى عليه الظاهر بيبرس بالقرافة، ودفن في اخر القرافة مما يلي الجبل من ناحية البركة، وصُلِّيَ عليه صلاة الغائب في جامع دمشق، وغيرها من الجوامع بالشَّام يوم الجمعة اخر جمادى الأولى، ونادى النَّصير المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة: الصَّلاة على عز الدين بن عبد السلام[3]. وقال ابن كثير: توفي في العشر من جمادى الأولى، وقد نيَّف على 80 سنة، ودفن في الغد بسفح المقطَّم[4].

وقال الذهبي: توفي بمصر في جمادى الأولى سنة 660هـ وحضر جنازته الخاصُّ، والعامُّ: السلطان فمن دونه، ودفن بالقرافة في اخرها، ولما بلغ السلطان خبر موته؛ قال: لم يستقرَّ ملكي إلا الساعة؛ لأنَّه لو أمر الناس فيَّ ما أراد؛ لبادروا إلى امتثال أمره[5].

وقال السبكي نقلاً عن ولده الشيخ عبد اللطيف: وكانت وفاة الشيخ في تاسع جمادى الأولى في سنة ستين وستمئة فحزن عليه . الظاهر .كثيراً حتى قال: لا إله إلا الله ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي! وأمر أمراءه، وخاصته، وأجناده بتشييع جنازته، وحمل نعشه، وحضر دفنه[6].

---

(1) طبقات السبكي (248/8) وفتاوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ص 154.

(2) العز بن عبد السلام ، سلطان العلماء ص 179.

(3) الذيل على الروضتين ص216 وفتاوى شيخ الإسلام العز ص154.

(4) البداية والنهاية (442/13).

(5) العبر (260/5).

(6) طبقات الشافعية (245/8) وفتاوى شيخ الإسلام ص155.

وقد اختُلف في عمره على روايتين: إحداهما: أنَّ عمره اثنتان وثمانون سنة، والأخرى: ثلاث وثمانون سنة، وهذا الاختلاف راجعٌ إلى الخلاف في ولادته، فمن قال: إنَّه ولد سنة 577هـ جعل عمره 83 سنة، ومن قال: إنه ولد سنة 578هـ جعل عمره 82 سنة. وأما ما ذكره المقريزي من أنَّ عمره اثنتان وستون؛ فهو خطأ؛ لأنه مخالف لما ذكره عامَّة المؤرخين، ولعلَّه تحريف من النسَّاخ، أو خطأ منهم، والله أعلم! وبالجمع بين هذه الروايات أرى: أنَّ أقربها للصحَّة، والصَّواب ما ذكره السبكي من أنَّ عمر العزِّ ثلاثٌ وثمانون سنة[1]. والله أعلم!.

5 . أقوال العلماء فيه:

لقد شهد العلماء قبل العامة للعزِّ بن عبد السلام بالإمامة، والرياسة، وعلوِّ المقام، يدلُّ على ذلك مواقفه التي ذكرنا طرفاً منها، ومؤلفاته، وتلامذته الذين طبقت شهرتهم الافاق، وقد شهد للشيخ علماء عصره، ومن جاء بعدهم من جهابذة العلم، ومشاهير الرجال. وهذه نبذة من أقوالهم[2]:

أ . ثناء المعاصرين له:

. قال العلامة ابن الحاجب صديق العز، ومعاصره، ورفيقه في السَّفر، والرِّحلة عن العز: ابن عبد السلام أفقه من الغزالي[3].

. قال العلامة، جمال الدين الحصري: (ت637هـ) شيخ الحنفية في زمانه مخاطباً سلطان دمشق عن العز: هذا رجل لو كان في الهند، أو في أقصى الدنيا؛ كان ينبغي للسُّلطان أن يسعى في حُلوله في بلاده، لتتم بركتُه عليه، وعلى بلاده، ويفتخر به على سائر الملوك[4].

. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: (ت656هـ) معاصر العز يمدح مجلسه في الفقه: ما على وجه الأرض مجلسٌ في الفقه أبهى من مجلس عز الدين بن عبد السلام[5].

---

[1] طبقات الشافعية (245/8) وفتاوى شيخ الإسلام ص155.

[2] فتاوى شيخ الإسلام ص156.

[3] طبقات الشافعية الكبرى (214/8) وحسن المحاضرة (315/1).

[4] المصدر نفسه (237/8) والعز بن عبد السلام للزحيلي ص195.

[5] حسن المحاضرة (315/1) والعز بن عبد السلام للزحيلي ص195.

- وقال الحافظ زكي الدين المنذري: (ت 656هـ) مفتي الشافعية بمصر، ومعاصر العز: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره؛ فمنصب الفتيا متعيّن فيه.

ب ـ ثناء بعض التلاميذ على العزِّ:

قال أبو بكر بن مسدي الأندلسي: (663هـ) تلميذ العز عن شيخه: أحدُ فقهاء هذا المذهب، ممَّن فرَّع على أصوله، وهذَّب، ورأس فقهاء بلده[1].

- قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة (665هـ) أحد تلامذة الشيخ: وكان أحقَّ الناس بالخطابة، والإمامة، وأزال كثيراً من البدع؛ التي كان الخطباءُ يفعلونها، من دَقِّ السيف على المنبر، وغير ذلك، وأبطل صلاتي الرَّغائب، ونصف شعبان، ومنع منهما.

- قال القاضي الفقيه الأصولي الأديب الحافظ ابن دقيق العيد (702هـ): تلميذ العز عن شيخه، كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء[2].

- قال عز الدين الحسيني تلميذ العز عن شيخه: كان عالمَ عصره في العلم جامعاً لفنون متعدِّدةٍ، مضافاً إلى ما هو عليه من ترك التكلُّف مع الصلابة في الدِّين، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه[3].

ج ـ ثناء العلماء والمنصفين على العزِّ:

- قال الذهبي (ت748هـ) عن العزِّ: . بلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب مع الزُّهد، والورع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصَّلابة في الدين[4].

- وقال فخر الدين بن شاكر الكتبي (ت764هـ) عن العزِّ: شيخ الإسلام، وبقية الأعلام، الشيخ عز الدين... سمع.. وتفقه.. ودرَّس، وأفتى، وبرع في المذهب، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من البلاد، وتخرَّج به أئمة، وله الفتاوى السَّديدة، وكان ناسكاً، ورعاً، وأمَّاراً بالمعروف، نهاءً عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم[5].

---

(1) تاريخ علماء بغداد ص105 والعز بن عبد السلام للزحيلي ص195.
(2) حسن المحاضرة (315/1) والعز بن عبد السلام للزحيلي ص195.
(3) شذرات الذهب نقلاً عن العز بن عبد السلام للزحيلي ص196.
(4) العبر في أخبار من غبر (260/5) العز بن عبد السلام ص196.
(5) فوات الوفيات (594/1 ـ 595) العز بن عبد السلام ص197.

. وقال اليافعي اليمني (ت764هـ) عن العزِّ: سلطان العلماء، وفحل النجباء، المقدَّم في عصره على سائر الأقران، بحر العلوم والمعارف، والمعظَّم في البلدان، ذو التحقيق، والإتقان، والعرفان، والإيقان... وهو من الذين قيل فيهم: علمهم أكثر من تصانيفهم، لا من الذين عبارتهم دون درايتهم، ومرتبته في العلوم الظاهرة مع السابقين في الرَّعيل الأول[1].

. وقال العلامة تاج الدين ابن السبكي (ت771هـ) في ترجمته للعزِّ: شيخ الإسلام، والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في زمانه، المطَّلع على حقائق الشريعة، وغوامضها، العارف بمقاصدها، لم ير مثل نفسه، ولا رأى من راه مثله، عِلمْاً، وقياماً في الحقِّ، وشجاعةً، وقوة جنان، وسلاطة لسَان[2].

. وقال العلامة الفقيه الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي: (ت772هـ) في ترجمة العزِّ: الشيخ عز الدين... كان رحمه الله شيخ الإسلام علماً، وعملاً، وورعاً، وزهداً، وتصانيف، وتلاميذ، امراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، يهين الملوك، فمن دونهم، ويغلظ القول .. وكان فيه مع ذلك حسن محاضرة بالنوادر، والأشعار[3].

. وقال المؤرخ الفقيه الأديب العماد الحنبلي عن العزِّ: عز الدين: شيخ الإسلام. الإمام العلامة، وحيد عصره، سلطان العلماء، وبرع في الفقه، والأصول، والعربية، وفاق الأقران، والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير، والحديث، والفقه، واختلاف الناس، ومأخذهم، وبلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وصنَّف التصانيف المفيدة[4].

د . ثناء بعض المتأخرين على العز:

أ . الشيخ عبد الله مصطفى علي العز:

عبد العزيز. الملقَّب بعز الدين، المعروف بسلطان العلماء شيخ الإسلام والمسلمين، وإمام عصره بلا مدافع، وفريد زمانه بلا منازع، كان ابن عبد السلام علماً من الأعلام، شجاعاً في الحقِّ، امراً بالمعروف،

---

(1) مرأة الجنان (153/4) العز بن عبد السلام ص197.

(2) طبقات الشافعية الكبرى (209/8) العز بن عبد السلام ص197.

(3) طبقات الشافعية للإسنوي (84/2) العز بن عبد السلام ص197.

(4) شذرات الذهب نقلاً عن العز بن عبد السلام للزحيلي ص199.

ناهياً عن المنكر، فقيهاً أصولياً، محدّثاً، خطيباً، واعظاً، أديباً، شاعراً، رقيق الحاشية، حاضر النادرة، محترماً، وقوراً، تخشى السّلاطين والأمراء صولته، وسلطانه[1].

. وقال العلامة مصطفى السباعي: بعد أن عرض العصر الذي سبق العزَّ، وسكوت أكثر العلماء عن الجهر بالحق، أو مسايرة الحكام، أو اعتزال الحياة العامَّة؛ قال: في هذا الوسط المضطرب نشأ العالم العظيم «سلطان العلماء» عز الدين بن عبد السلام، فكان وجوده نسمة من نسمات الرجاء تهبُّ على قلوب اليائسين، وعزمةً من عزمات الإيمان، تنبعث في أوساط المتخاذلين، وومضةً من ومضات النور تضيء الطريق للمدلجين في دياجير الظلام، وسوطاً من سياط الحقّ يلهب الله به ظهور المتكبرين، والمتجبرين، والظالمين. إنَّ العز بن عبد السلام من أعظم علماء الإسلام الذين تهزني دراسة اثارهم وسيرتهم هزَّاً عنيفاً[2].

. وقال الأستاذ رضوان علي الندوي: ... وهناك جانبٌ لشخصيته اخر مشرق. وهو ملكته الأصيلة في فهم الشريعة، وروحها، ومقاصدها فهماً راسخاً، شاملاً، عقلياً، دقيقاً، مبتكراً بعض الابتكار، وهو من السابقين الأول في حركة «التقعيد» في الفقه الإسلامي وتطويره . إلى أن قال في الخاتمة: انتهينا من البحث في حياة سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام، فرأيناه عالماً جليلاً، يدرس، ويؤلِّف، ويفتي، وقاضياً عدلاً يحكم، ويقضي، وعرفناه عالماً مجاهداً يوجِّه، ويرشد، ويعترض وينتقد الملوك، والأمراء، والعامة على السَّواء، وهو في هذا يتحمَّل الأذى، والمشقَّة، ويتعرَّض للخطر، والاضطهاد، فلا يبالي، ولا يقف، ويواصل النشاط، ويدأب على العمل، ويقيم على الحقِّ، ويحاول إقامته في المجتمع حتى قضى... وكان بذلك رجل عصره، وموجِّه زمانه، وقدوة لمن بعد[3].

. وقال محمد حسن عبد الله في ختام بحثه عن عبد العزيز بن عبد السلام بائع الملوك: بعد معرفتنا بهذا كلِّه ندرك أيَّ حياة عاشها هذا الرجل؛ الذي زلزل قواعد الظلم في زمانه، وجدَّد حياة الحركة العلمية الإسلاميَّة، وأعاد الدِّماء الحارة الحرَّة إلى شرايينها، فأعاد إلينا ذكر المصطفين الأخيار من علماء صدر الإسلام، وقادته الاجتماعيين، ومتصوفته العارفين[4].

---

[1] الفتح المبين في طبقات الأصوليين (73/2).
[2] العز بن عبد السلام للندوي ، تقديم مصطفى السباعي ص5 - 6.
[3] المصدر نفسه ص177 ، 178.
[4] من بائع الملوك ص 197.

. العز يعرف نفسه:

وقبل كلِّ هذا الثناء من الاخرين، وبعد هذا الثناء يأتي ثقة العزِّ العالم، الواثق بربه، والعارف لما أعطاه الله من علمٍ، وفقهٍ، وحرصٍ على نشره بين الناس ابتغاء مرضاة الله تعالى، ولذلك لما هاجر من دمشق، ورحل في طريقه إلى مصر؛ هرع إليه أمراء المدن لاستضافته في إماراتهم؛ لكي يحظوا بوجوده عندهم، ويسابقوا غيرهم، ويفخروا به؛ ومن بين هؤلاء صاحب الكرك، وهي قلعةٌ قوية، ومدينةٌ صغيرة، فجاء سلطانها، وسأل العزَّ الإقامة عنده، فأجابه بصراحة الرجال، وبكلِّ ثقة: بلدك صغيرٌ على علمي، وقصدي نشره، وتابع سيره إلى أرض الكنانة، وعاصمة الأيوبيين في القاهرة.

وصدق الشاعر عندما قال:

هم الرِّجالُ وَعَيْبٌ أنْ يُقالَ لِمَن ... لم يتَّصفْ بمعاني وَصْفِهِمْ رَجُلُ[1]

. ما قيل فيه من شعر:

قال فيه تلميذه ابن الطبَّاخ:

مجلسُكم بحرٌ وإنِّي امرؤ ... لا أحسنُ العَوْمَ فأخشى الغرقا

وقال يحيى بن عبد العظيم الجزَّار بمدح الشيخ، ذكر ابن السبكي بيتين من ذلك، هما:

سارَ عبدُ العزيز في الحكمِ سيراً ... لم يَسِرْه سوى ابنُ عبد العزيز

عمّنا حكمه بفضلٍ بسيط ... شاملٍ للورى ولفظٍ وجيز

وقال قاضي أسوان عمر بن عبد العزيز يمدحه في مجلسه:

مولاي عِزَّ الدِّين عزَّ بكَ العُلا ... فخراً فدون حِذَاك منه الْهَامُ

لما رأينا منك علماً لم يَكُنْ ... في الدَّرس قُلنا إنَّه إلْهَامُ

جاوزتَ حدَّ المدح حتَّى لم يُطِق ... نظماً لِفَضْلكَ في الورى النَّظَّام

وهذا فيض من غيض مما ذكره العلماء فيه[2]. رحمه الله رحمةً واسعةً، وأعلى ذكره في المصلحين، وأسكنه فسيح جناته، وجمعنا به في دار الخلود مع الأنبياء، والصدِّيقين، والشهداء، والصَّالحين.

سبحانك اللهم وبحمدك، وأشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفركَ، وأتوبُ إليك. واخر دعوانا:

أن الحمد لله ربِّ العالمين

[1] العز بن عبد السلام، للزحيلي ص 203.
[2] فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ص158.

فهرس الكتاب :



كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القران الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القران الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين زنكي.
19. نور الدين زنكي.
20. دولة السلاجقة.
21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23. الشيخ عمر المختار.
24. عبد الملك بن مروان وبنوه.

25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27. وسطية القران في العقائد.

28. فتنة مقتل عثمان.

29. السلطان عبد الحميد الثاني.

30. دولة المرابطين.

31. دولة الموحدين.

32. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33. الدولة الفاطمية.

34. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41. الشورى في الإسلام.

42. الإيمان بالله جل جلاله.

43. الإيمان باليوم الآخر.

44. الإيمان بالقدر.

45. الإيمان بالرسل والرسالات.

46. الإيمان بالملائكة.

47. الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48. السلطان محمد الفاتح.

49. المعجزة الخالدة.

50. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51 . البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52 . التداول على السلطة التنفيذية.

53 . الشورى فريضة إسلامية.

54 . الحريات من القران الكريم، حرية التفكير، وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55 . العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56 . المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57 . العدل في التصور الإسلامي.

58 . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59 . الأمير عبد القادر الجزائري.

60 . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61 . سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62 . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63. أعلام التصوف السُني "ثمانية أجزاء".

64. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

* * *



د. علي محمد محمد الصّلابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:
  - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث
  - سير الخلفاء الراشدين
  - الدولة الحديثة المسلمة
  - وسطية القرآن الكريم في العقائد.
  - صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
  - تاريخ كفاح الشعب الجزائري
  - العدالة والمصالحة الوطنية

وآخر مؤلفاته "الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج".